مَخَاطِرُ طُقوسُ عاشوراء في التحريض والاختلاق والإساءة لآل البيت عليهم السلام

إعداد

مركز الدراسات والبحوث العلمية بدار الآل والصحب

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

طقوس عاشوراء والتربية على التحريض والتكفير

المقدّمة

تمهيد :

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله ومن اتبعه بإحسان إلى يوم الدين... أما بعد.

إن الطقوس والشعائر الحسينية أصبحت تُقام طوال العام بشكل منظم ومتزايد، وتمثل عند عامة الشيعة امتداداً لحادثة الطف أو عاشوراء، وعلامة كبرى من علامات الولاء والبراء في الإيمان بهذه الثورة ومقتضياتها، وهي امتداد رمزي لكل علامات الخروج على كل حاكم لا يتوافق نهجه مع نظرية الإمامة، وخاصة إذا كان من أهل القبلة؛ ولذلك فإن من أهم الصفات والسمات التي اكتسبتها الشخصية الشيعية من تلك الواقعة هي: حتمية الخروج على الحاكم السُنّي ـ أيّاً كان مذهبه أو توجهه ـ وإنْ لم يتمكن من الخروج، فعليه أن لا يترك سبيلاً للتحريض إلا وقد سلكه[1].

وحادثة الطف أو عاشوراء إنما تمثل ذلك الخط الفكري المتصاعد، والذي تتلازم مظلوميته مع الضعف، والذي يستولد منه القوة لأجل أن يقول لكل حكام أهل السُنّة ابتداءاً من أبي بكر وعمر –رضي الله عنهما– وانتهاءاً بآخر الحكام « إنكم عنوان الجور

(١) يجب عدم السكوت وتدارك الخطر، بإصدار قرار من حكام المسلمين بتجريم كل من يسب أحد زوجات النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو أحد الصحابة رضي الله عنهم وتطبق عليه أشد عقوبة.

والظلـم والطغيـان، وإن عملتم بعدل الأرض كلـه؛ لأنكم اغتصبتم حـق المعصـوم في الأرض وحرمتم البشـرية من فيئـه وعدله؛ لذلك فإن التشـيع هو دعوة صريحـة للتحريض والخـروج والثورة متى ما وجدت له بذرة وإن ضعفت في الأراضي السُنّية .

وقد تجسـد هـذا الخط الفكـري في تلك الثـورات المتعددة عبر التاريخ، والتي حملت شـعار أهل البيت سلام الله عليهم، وأسقطت الكثيـر مـن الـدول عبر تلـك المراحـل، والشـيعي اليـوم وفي حالة الاسـتضعاف لا يملك سـبيلاً لبلوغ تلـك الثـورة، إلا بالعمل بتلك الطقـوس والشـعائر؛ لذلك فإن العمل بها يعتـبر بحق أعظم مصداق الخروج والتكفير لحكام أهل السُنَّة وعامتهم .

إن الذي يسـتقرئ تاريخ تلك الحادثة من كتب التاريخ المعتمدة سـيجدها قد فقدت جوهرها وحقيقتها وحاد عامة الشيعة إلى معاني تلك الطقوس، والتي انحرفت بهم ذلك الانحراف الواسـع والخطير والذي أبعدهم، بل جعلهم يصطدمون مع هذا المسـار جازمين على أنفسهم بأن هذا هو الحق المبين .

إن الشـيعي وهـو يعمل بهذه الطقوس والتي تدعـوه لتكفير الأمة والخـروج علـى ولاة أمرهـا إنمـا يعتقد جازمـاً أنه يسـير في خطى الثورة الحسـينية، وأنـه لم ينفصل لحظة عن أُسـس وأصالة أفكارها وعقائدهـا، بل هو في قرارة نفسـه يظن أن العمـل بتلك الطقوس هو تجسيد وإكمال لتلك الثورة الإصلاحية المتكاملة .

لذلك وليس من بدع القول أن ندَّعي أن تلك الطقوس تمثل دعوة صريحة للتحريض والخروج على حكام أهل السنة خصوصاً، ولو خضنا غمار التشريعات الجنائية لوجدنا أن التحريض يمثل إحدى الجرائم الكبرى التي سنَّها ذلك التشريع، ولئن اشترط في التجريم في بداية الأمر المشاركة في الفعل، أو في ذلك النشاط؛ فإن من ضرورات تلك الطقوس إفراغها في قالب الجريمة المستقلة القائمة بذاتها .

والتحريض بمعناه المطلق هو خلق الفكرة لجريمة معينة، ومن ثم الاستمرار في التحريض لأجل أن يخلق في نفس الجناة التصميم الدائم، والإرادة المطلقة لتنفيذ مفردات هذا التحريض، وبحسب تلك الوسيلة التي افترضها له هذا المُحَرِّض .

إن التحريض من حيث التصنيف الجنائي ينتمي إلى خانة النوايا والأفكار ، وبهذا يمكن أن يسلم المحرض الحقيقي لتلك الأفعال والتي تهز كيان الدولة، والتي تفتح على الأمة باباً من الشر عظيم، ربما يكون أهونه دخول الغازي الكافر، ونهايته تغيير الهوية والدين وامتلاك الأرض واستعباد البشر .. نعم هنالك فرق واضح في القانون الجنائي من حيث التصنيف والحكم بين نشاط المُحَرِّض، ونشاط الفاعل، وعادةً ما يقع ثقل العقوبة على الفاعل، وذلك لأن نشاط الفاعل ذو طبيعة مادية ، حيث أنه يستعين بقوانين الطبيعة كي يحقق غرضه ، وبتوفر الجرم المادي على الفاعل يتحقق للمحكمة أركان الحكم، في حين أن المُحَرِّض والذي خلق الفعل والتصميم في نفس الفاعل، والذي هو بالحقيقة أشد جرماً من

الفاعل نفسه؛ إذ لولاه لما وجد هذا الفاعل أصلاً لتحقيق ذلك الجرم، في حين أن المُحَرِّض يسلم من العقوبة والتنكيل، ولقد انتبه بعض المشرعين إلى هذا التناقض أو إلى هذا الاعوجاج، فجعل جريمة التحريض جريمة مستقلة، ليست فيها صورة من صور الاشتراك مع الجريمة .

وكما سنثبت في المباحث الآتية أن الطقوس هي تمثل بالحقيقة جريمة واضحة المعالم مكتملة الأركان، والتي تدعو في صورتها وكيفيتها إلى إسقاط الحاكم السُنِّي دون سواه، لذلك فإن النشاط الذي يقوم به المُحَرِّض يتمثل في ذلك العمل الذي غايته التأثير على أفكار البسطاء من السارحة من أجل تحقيق ذلك الفكر الإجرامي، ومن ثَم تذليل الصعاب في مواجهتها وتقليل الاعتبارات والعواقب التي تنجم من تلك الجريمة، فدور المُحَرِّض ينحصر في خلق الفكرة ودعمها، ومن ثم الإقناع وخلق الإصرار في نفس الجاني، وبذلك يتوفر الركن المادي في هذه الجريمة، وهو القصد المتجه لتنفيذ وتحقيق هذا الجرم؛ ولهذا القصد عنصران :

الأول: العلم، والثاني: الإرادة والدعوة إلى تلك الطقوس أو التحريض عليها دعوة صريحة إلى إسقاط الحكم، وهذا الأمر يَعْلمهُ حقيقةً أولئك المراجع والدعاة؛ لأنهم يعلمون حقيقة دلالات تلك العبارات التي تُقال وتُردد في تلك الطقوس، ومدى تأثيرها اليقيني في تلك الوسائل التي يستخدمها أولئك الذين وقع عليهم فعل التحريض، والتحريض الذي تدعو إليه تلك الطقوس يمثل بالحقيقة أكثر وأوسع من أن يكون جريمة سياسية.

ومـن الضروري أن يوضع تعريف جامع مانـع لهذا الجُرْم، حتى لا يتـم الخلط بينه وبيـن المصطلحات الأخـرى، خصوصـاً في تلك البلـدان التـي يمارس فيهـا مثل تلك الطقـوس، والتي تمثـل مظهراً صارخـاً للتحريض وقلب نظام الحكم .

إن عدم معرفة تلك الآثار التحريضية أو الاسـتخفاف بها، يشجع هـولاء المُحَرِّضيـن إلى التمـادي في غيِّهم وسـلوك الأدوات الأكثر عمقـاً في تحقيق أهدافهم، ومـا كان ليحصل هذا لولا صمت العامة من الشـعب أو السلطة الحاكمة؛ لعدم معرفتهم الحقيقية لأصل تلك الطقوس وغاياتها، نعم هنالك فرق كبير بين التحريض على العصيان والخروج لأجل قضية ما، وبين القصد المُبَيَّت في إسقاط هذه الدولة ولو كانت تحكم بعدل الأرض كله، وكلا الأمرين جريمة، ولكن قد يكون للأولى ما يبررها، وليس للثانية ذلك على الإطلاق .

ليـس هنالك في القانون نص يحدد ويبين، ومن ثم يُجَرِّم وسـائل التحريـض، وإنما ترك ذلك لمحكمة الموضوع التي تسـتخلص من الوقائـع والظـروف قيـام الركن المـادي للجريمة، وفي هـذه النقطة بالـذات لـو نظر حـكام أهل السـنة والجماعـة في كل بلد ينتشـر فيه التشيع، وبنسبة معينة، وحتى البلاد التي لم ينتشر فيها التشيع، لألزموا أنفسـهم حمايةً لشـعوبهم وأوطانهم مـن مخاطر تلـك التحريضات إصـدار القوانيـن والتشـريعات التـي تَحُـدُّ وتقيد تلـك الظواهر بما يضمن سلامة الأمن والمجتمع .

ولا عجب بأن يتخذ الأفراد أو الشعوب في التحريض أشكالاً عدة، منها: الإيماءات أو الإشارات أو الأقوال أو الأفعال المختلفة كالكتابة مثلا أو كل ما يوحي للفاعل بفكرة الجريمة وارتكابها على سبيل القطع والجزم، لكنك تزدادُ عجبًا وحيرةً حينما ترى من أولئك أنهم قد اتخذوا من تلك التحريضات التي جسدتها تلك الطقوس وسيلة ونمطًا مطردا يفسدون فيها الحياة ويخربون بها الأوطان .

والتحريضُ ينقسم في القانون العام إلى قسمين: تحريض خاص أي: التحريض الفردي ، هذا هو الأول .

والثاني: التحريض العام، والذي يكون موجَّهًا إلى مجموعة أو إلى طائفة أو إلى أمة بعينها .

وهذا النوع أو هذا القسم، هو عين ما تمارسه الطائفة الشيعية تجاه الأمة السُنِّية بالمطلق، وتلك الممارسات والتي خلفت الكوارث والنكبات لا يمكن خفاؤها على أحد، ولم تنقطع على مر التاريخ، بل إن ما يجري اليوم على الأمة من تلك الطائفة لا يمكننا الإغماض عنه بحال.

وأمام هذا التاريخ الحافل بالجرائم والذي يمتد عبر التاريخ، ولم ينقطع شرهم ومكرهم وكيدهم وضرهم بالأمة ولن ينقطع، فإنه ينبغي على الحكام بصورة خاصة توجيه أصحاب التشريع؛ لأجل أن يشرعوا أحكامًا تحفظ كيان هذه المجتمعات وسلامتها من عبث هذه الطائفة وجرمها بشكل جامع ومانع .

إن هذه الطقوس لا يمكن أن تُعَدّ بحال حرية رأي أو فكر أو معتقد

خصوصاً إذا ثبت أنها تشكل لهوية إجرامية تروم العبث بمصير الأمة والنيل منها، والشارع الحكيم ومن أجل الحفاظ على كيان الأمة المسلمة شرع الأحكام التي تحد وتمنع من ظهور تلك الجماعات المارقة والتي تدعي الإصلاح والخير، فقد جاءت تلك الآيات صريحة في وجه هذا الفساد وهذا الشر المستطير: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣]

وهذه الآية والتي يتبين من خلال السياق أنها وردت في أولئك الذين خرجوا على حكام الأمة، أو قل إن شئت وردت في شان أولئك الذين تمردوا على السلطان، أو الإمام وروَّعت أهل دار السلام واعتدت على أرواحهم وأموالهم وحرماتهم، وهؤلاء الخارجون قد وصفهم الله بوصف بليغ يعري تلك النفوس من كل طهر ويبعدهم عن كل حق .. لقد وصفهم الله تبارك اسمه بأنهم: [يحاربون الله ورسوله]؛ لما في ذلك من الخروج عن شريعة الله ورسوله والجماعة التي ارتضت شريعة الله ورسوله والدار التي ينفذ فيها حكم الله ورسوله؛ ذلك أن الأمة المسلمة في دار من يحكمها من حقها أن تعيش آمنة، وللسلطة والتي تقيم شرع الله حق الطاعة، وفي هذا الوسط الرفيع تتوفر الضمانات كلها للازدهار والتقدم، وهذا هو

ما يوفره النظام العادل الذي يجب أن يُصان من المساس به .

وإذا ما شرعت القوانين الرادعة والتي تحقق مراد الله عز وجل في قوله في الآية السابقة، فإن الخارجين المفسدين يرتدعون عن غيِّهم وفسادهم، وهذا هو بالحقيقة هو الذي يمثل المنهج المتكامل الذي يأخذ بالنفس البشرية طوعاً أوكرهاً ومن أقطارها جميعا، ويخاطب فيها تلك الكينونة من مداخلها، ويلمس أوتارها الحية كلها، ويدفع بها إلى الطاعة ويصدها عن المعصية، وبذلك يتحقق الهدف وهو تحقيق تقويم النفس البشرية وكفِّها عن الزيغ والانحراف، ولتعلم تلك النفوس ولو بعد شوط من تلك العقوبات أن العقوبة لم تكن غايةً أبداً لهذا الدين القويم، كما أنها ليست وسيلته الوحيدة .

إن الحاكم المسلم قبل مجتمعه يوفر لأهل الإسلام على اختلاف عقائدهم، ما يدفع عنهم خواطر الكوارث ويوفر لها كل ضمانات العيش والكفاية، وضمانات التربية والتعليم وضمانات العدالة والتوزيع .

وللتحريض على قلب نظام الحكم آثار خطيرة لا يعلم بمداها وعِظَمِها إلا الله جل جلاله، فهو يفتح على البلاد مصيراً مجهولاً، بل ربما يسلمها إلى القهر والاستبداد، ولكي تتجلى حقيقة هذا التحريض من حيث الأدوار والوظائف والوسائل والغايات والمظاهر بالحقائق والأدلة، فإنه يلزم المتلقي الكريم قراءة هذه المباحث قراءة أسير لخطة فكاكه من قيده وحبسه .

المبحث الأول

عاشوراء والدعوة إلى الخروج على الحاكم السُنّي

الخـروج على الحاكم جريمة كبرى لا تقدرها الشـعوب إلا بعد وقـوع الكارثة، وإن من أعظـم أدوات التحريض على ذلك الخروج يتمثل في تلك الطقوس التي يتبناها عامة الشيعة بلا استثاء .

إن مسـيرة هـذه الطقـوس في الدعـوة والتحريض إلـى الخروج علـى الحاكم السُـنّي تحديـداً طويلة جـداً، تبدأ من الفكـر والعقل، وتظهـر متجلية بذلك السـلوك الذي يتجسـد في الألفاظ والحركات والإيماءات والتي تصرخ بسـيلٍ من الدماء، ويبتدئ أيضا في التهييج، وينتهي بسـاحات القتال والذبحً والحرق، والتواجد في كل سـاحات الفتنـة والعبث مـن أجل زيادتها لهيبـًا واشـتعالاً لأجـل حرق البلاد علـى أهلها، ولا يخفى أن تلك الطقـوس إنما هي المحرك الحقيقي والفعّال لتحريك جميع الشيعة في أي مكان نحو تحقيق هذا الهدف .

ولمن يحسن قراءة التاريخ يجد أن هؤلاء ليس لهم من وسيلة من حيث الفكر أو السـلوك من أجل تحقيـق تلك الغاية العظيمة عندهم إلا تلك الطقوس .

إن أسـاس الدعوة إلـى ذلك الخروج، هو: التكفيـر والعداء المطلق للمجتمـع السُـنِّي، وبالخصوص رأسـه الحاكم، وما من وسـيلة لإيقاع ذلك التكفير في الواقع الخارجي إلا تلك الطقوس، ومن الواضح للناظر

في تلك الطقوس والتي تعبر عن ثورة عارمة تحتمل المَلْمَسَين معاً هما:

أولا: ملمس الحيَّة الرقطاء، والتي لا تشعر بها لنعومتها، وهي تتسلق من أسفل الظهر حتى أسفل الرأس إلى أن تنفث سمومها في شرايين الدماغ والرأس.

ثانيا: ملمس خشن لا تظهر منه إلا رؤوس الحراب والخناجر المسمومة، وبوصف تلك الطقوس ثورة للاستيلاء على السلطة؛ لأنها على حدِّ زعمهم مرتبطة بذلك الخروج المقدس للإمام الحسين سلام الله عليه، والذي شرع فيه الخروج على كل الحكومات المغتصبة لحق آل البيت، وهذه الثورة والتي تمثلها تلك الطقوس إنما هي مرتبطة بذات الباري جل جلاله؛ لذلك فقد صرح الكثير من مراجعهم بأنها أفعال إلهية تحتوي وتتضمن مشاريع عدة، وفي مقدمة تلك المشاريع: اجتثاث جميع أشكال الذنوب والفساد من خلال مجاري السلطة والقوة في المجتمع، أو من خلال اعتبار حركة الإمام حركة لذات الباري جل شأنه .

إن الناظر في تلك الحركة الرهيبة، والتي تحمل في طياتها كل أنواع الغدر والختل، لا يجد إلا وفؤاده ينخلع هماً وحسرةً وجزعاً، وتعتصر في صدره ضربات قلبه كمداً وأسفاً لِمَا يلقى ببصره من حوله فلا يجد إلا الغفلة أو التغافل بين ثنايا تلك الأضاليل والأباطيل، وهو يرى العامة من الناس ترتعش أقدامهم، وترتجف بين تلك المضائق والمنفرجات، وتتدافع بين الثنايا والعقابات .

فكيف السبيل وأنت ترى اتصال تلك الأفعى المتمسحة بتلك الطقوس وهي ترسم في كل طيات أركانها وقسماتها سمات الوداعة والسذاجة، وهي تتسلق ظهر ذلك الرجل السليم حتى تتسلق كرة دماغه من خلال التمويه والخداع، حتى تتربع على أم رأسه كمليك على عرشه، وحينها تحركه كيفما تشاء تلعب بروحه وبدنه .

أَصْفَرت الأكفّ من الأنصار والأعوان، وبَحَّت الحناجر وهي تعلو بالصراخ والتحذير من آثار ووظائف وأدوار تلك الطقوس الخطيرة، والتي ما لبثت تحشد أولئك الضالين من أجل اجتثاث ذلك الكيان السُنِّي من الأعماق، وهو أمر لا يكاد يخفى على الناقد البصير، فمن يكفر سادتنا من الأولين من أمثال أبي بكر وعمر، ويصفهما بالجبت والطاغوت، ويتعبد إلى الله بلعنها وسبهما والبراءة منهما، فهو من باب أولى يرى كفر حكامنا اليوم، ويرى وجوب الخروج عليهم ما أمكن إلى ذلك سبيل.

ألم يرووا عن الإمام الصادق سلام الله عليه أنه قال:[قال الله تبارك وتعالى: لأعذبنَّ كل رعية في الإسلام دانت بولاية كل إمام جائر ليس من الله وإن كانت الرعية في أعمالها بَرَّة تقيّة، ولأعفونَّ عن كل رعية في الإسلام دانت بولاية كل إمام عادل من الله وإن كانت الرعية في أنفسها ظالمة مسيئة][1]. وهم يتعبدون إلى الله بهذا القول وكل منهم يرجوا منه القربة بالعمل به .

(١) الكليني: «الكافي»: (١/ ٣٧٦)، وانظر: «البحار»: (٢٥/ ١١٠).

ورواياتهم في هذا المعنى كثيرة، فمن أبواب صحيحهم الكافي باب (فيمن دان الله ﷻ بغير إمام من الله جل جلاله ، وذكر فيه خمسة أحاديث في معصوميهم)[١] و(باب من ادعى الإمامة وليس لها بأهل ومن جحد الأئمة أو بعضهم ومن أثبت الإمامة لمن ليس لها بأهل، وذكر فيه اثني عشر حديثاً)[٢]، وفي كتاب (بحار الأنوار) لعلامتهم محمد باقر المجلسي (باب عقاب من أدعى الإمامة بغير حق أو رفع راية جور أو أطاع إماماً جائراً، وذكر فيه ثمانية عشر حديثاً)[٣]، والإمام الجائر، والظالم، والذي ليس أهلاً للإمامة، والإمام الذي ليس من عند الله، وما شابه ذلك من أوصاف، كل ذلك يطلقونه على حكام المسلمين من غير أئمتهم الاثني عشر، وعلى رأس هؤلاء الحكام – الخلفاء الثلاثة الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم – حتى قال علامة الشيعة محمد باقر المجلسي: (ثم إنا بسطنا الكلام في مطاعنهما في كتاب الفتن، وإنما ذكرنا هنا ما أورده الكفعمي ليتذكر من يتلو الدعاء بعض مثالبهما لعنة الله عليهما وعلى من يتولاهما)[٤].

وهذا ما يقوله إمامهم المجلسي – الذي يعدون كتابه «بحار الأنوار» من مصادرهم الأساسية في الحديث – وهذا ما يقوله في

(١) الكليني: «الكافي»: (١/ ٣٧٤ – ٣٧٦).
(٢) الكليني: «الكافي»: (١/ ٣٧٢ – ٣٧٤).
(٣) المجلسي: «البحار»: (٢٥/ ١١٠) وما بعدها.
(٤) المجلسي: «البحار»: (٨٢/ ٢٨٦).

أفضل الأمة بعد رسل الله وأنبيائه، فيمن أقاموا دولة الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فإذا كانت هذه نظرتهم لحكومة الخلفاء الراشدين الثلاثة فكيف بمن بعدها ؟!

وبناءً على اعتقادهم هذا في الحكومات الإسلامية تعمدوا الدسّ والتشويه للتاريخ الإسلامي، وافتعال الصراع بين الآل والأصحاب، ومناصرة الأعداء ضد الدولة الإسلامية؛ لأنها غير شرعية في زعمهم وحكامها طواغيت في اعتقادهم، وبناءاً على مبدئهم في خلفاء المسلمين اعتبروا كل من يتعاون معهم طاغوتاً وجائراً وعلى رأسهم قضاة المسلمين وعلماؤهم، فيروي محدثهم الكليني بسنده عن عمر بن حنظلة قال:[سألت أبا عبد الله عن رجلين من أصحابنا بينهما منازعة في دين أو ميراث وتحاكما إلى السلطان وإلى القضاء أيحل ذلك ؟؟ قال: من تحاكم إليهم في حق أو باطل فإنما تحاكم إلى الطاغوت ، وما يحكم له فإنما له يأخذ سحتاً وإن كان حقّاً ثابتاً له لأنه أخذه بحكم الطاغوت..] [1].

ويقول الخميني – معقباً على حديثهم هذا: (الإمام عليه السلام نفسه ينهى عن الرجوع إلى السلاطين وقضاتهم، ويعتبر الرجوع إليهم رجوعاً إلى الطاغوت)[2]، ومقصد الخميني بحكام الجور .. الخ،

(١) الكليني: «الكافي»: (١/ ٦٧)، و«التهذيب»: (٦/ ٣٠١)، «من لا يحضره الفقيه»: (٣/ ٥)، «الوسائل» المجلد الثامن عشر، أبواب صفات القاضي الباب ١١ ص ٩٨.

(٢) «الحكومة الإسلامية»: ص ٧٤.

فإنما يعني بهم حكام أهل السنة دون سواهم، ذلك أن الدول عند هؤلاء القوم تنقسم إلى قسمين:

الأول : قسم يؤمن بالإمامة الشيعية كدولة البويهيين والعبيديين والصفويين والقاجاريين والزنديين.

الثاني: قسم لا يؤمن بتلك الإمامة ولا بتلك النظرية الشيعية الموهومة، كدولة الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين والعثمانيين والدول السُنّية المعاصرة .

وانظر إلى قول المحقق الكركي في تصنيفة للدول : [فإن الله سبحانه وله الحمد والمنة، لما كشف الغمة عن هذه الأمة بتأييد الدولة القاهرة الباهرة الشريفة المنيفة العالية السامية العلية الصفوية الشاهية الموسوية أيدها الله بالنصر والتمكين وأيدها بالملائكة والإنس والجن أجمعين وجعل كلمتها العليا وكلمة الذين كفروا السفلى إلى يوم الدين، ونكست رؤوس أهل البدعة الذين تَسَمَّوا بغيًا بأهل السنة]. (١)

وانظر إليه وهو يصف جميع الدولة التي قامت بعد رسول الله صلوات ربي وسلامه عليه بالجور والبغي، لا لشيء إلا لأنهم لم يؤمنوا بتلك النظرية المزعومة : [واستيلاء دول الجور ورؤوس البغي الذين جحدوا ما علموه وبدلوا ما سمعوه، وأنكروا ما ثبت

(١) نفحات اللاهوت في لعن الجبت والطاغوت للمحق الكركي ص ٣٩ .

في أعناقهم من حق أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وأهل بيته المعصومين عليم السلام، وادعوا المقام على الناس، وتَسَمَّوا زورا وبهتانا بخلفاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بغير قدم راسخ في علم، ولا سبق في الفضل، إلا بالحيل والخدائع من أرباب الذخول والأحقاد الذين قالوا آمنا بأفواهنا ولم تؤمن قلوبهم، ومن شك في ذلك فلينظر كيف عقدهم البيعة في السقيفة ...].

وانظر إليه وهو يستخف بأعظم رجال - بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم- عرفهم تاريخ المسلمين وأعظم حكام لأهل السنة والجماعة : [وليتأمل العاقل المنصف أنه هل يجوز أن يتولى منصب الإمامة الذي هو معظم منصب النبوة، مثل شيخ تميم الجاهل بأمور الدين، ومواقع الشرع، بحيث يخفى عليه ميراث الجدة، ونحوه بعد أن سجد للأصنام حتى شاب رأسه، ومثل عتل عدي الزنيم ذي الفظاظة والغلظة والمكر والخديعة المطعون في نسبه، والمجترئ على رسول الله في حياته وبعد موته الذي حكم الدين برأيه وغير الشرع من عند نفسه ، وفعل مع بضعة الرسالة وسلالة النبوة ما لا يفعله ذوي الأحقاد من الجاهلية الأولى بأعدائهم ، ومثل: ثور بني أمية الذي حملهم على أعناق المسلمين وآثرهم بالفيء والغنائم على كبراء الأنصار والمهاجرين، مولى عداء رسول الله والمنتقم من ذرية البتول والمقتول بسيوف قتل بها المشركون في بدر وأحد وغيرهما من مواقف الحروب، وليتأمل كيف تسافل الأمر حتى تنازعها -

أي الحكـم والامـارة – علوج بني أمية الشـرابون للخمور المعلنون بالفسـق والفجور والمسـتحلون لبس الحرير ولعب الطنابير، قتلوا ذرية المصطفى والمتدينون بسـب المرتضى، ثـم تلقفها بنو العباس السالكون مسالك أولئك الأرجاس]. (١)

وعلى هذا عامة الشيعة ولا يمكن أن نستثني منهم أحداً، والتكفير والعداء يوجه بطرف واحد وعين واحدة إلى الشـعوب والحكومات السـينة على حد سواء، ولكنهم يقدمون التكفير والعداء لتلك الدول والحكومـات، والتي تكون أقرب من منهج الله تبارك وتعالى، ونحن نرى في هذا القرن الأخير أن جُلّ التكفير والعداء وكل مظاهر الدعوة إلـى الخروج والفتنـة ، والتي يدعو إلى عامة الشـيعة إنما تتوجه إلى المملكة العربية السـعودية ، وذلك لأسـباب عـدة : أبرزها قربها من منهج الرسول صلوات ربي وسلامه عليه ، وأكثرها مناقضة ومصادمة لـكل المناهج الوضعيـة ومنها منهج الإمامية لذلـك نراهم يضربون على وتر الفرقة فيصفون منهج المملكة في التدين والسياسية بوصف ، يدعـوا الى أن يكونوا فرقة تناقض أصول وثوابت الأمة بصوة عامة ومطلقـة ، وهم يتطلعون شـوقا لسـقوط المملكة بأيديهـم أو بأيدي الغـزاة لا قدر الله، وهذا هو ماعبر عنه ، آيتهم حسـين الخراسـاني في كتابه (الإسـلام على ضوء التشـيع) (٢): [أن كل شـيعي على وجه

(١) نفحات اللاهوت في لعن الجبت والطاغوت للمحقق الكركي ص ٤٠ .

(٢) من شيوخهم المعاصرين في إيران يلقبونه بـ «آية الله»، له أكثر من ٣٥ مؤلف.

الأرض يتمنى فتح مكة والمدينة وإزالة الحكم الوهابي عنها]، ويقول: [إن طوائف الشيعة يترقبون من حين وآخر أن يوماً قريباً آت يفتح الله تعالى لهم تلك الأراضي المقدسة لمرة أخرى – كذا – ليدخلوها آمنين مطمئنين فيطوفوا ببيت ربهم، ويؤدوا مناسكهم ويزوروا قبور ساداتهم ومشايخهم، وفي مقدمها قبر صاحب الشريعة الإسلامية ومسجده الشريف وقبور أهل بيته وعترته الطاهرين في البقيع، ولا يكون هناك سلطان جائر يتجاوز عليهم بهتك أعراضهم وذهاب حرمة إسلامهم وسفك دمائهم المحقونة، ونهب أموالهم المحترمة ظلماً وعدواناً. حقق الله تعالى آمالنا] [1].

هكذا يتمنى هذا الرافضي فتح الديار المقدسة، وكأنها بأيدي كفار، ويعلل هذا التمني بأنه يريد الحج والزيارة، وكأنه وطائفته قد منعوا من ذلك، والواقع أنه يريد إقامة الشرك وهدم التوحيد في الحرمين الطاهرين، وهذه الأمنية هي التي رددها بعض رجالات ثورة الخميني؛ ففي احتفال رسمي وجماهيري أقيم في عبدان في ١٧/ ٣/ ١٩٧٩م تأييداً لإقامة الجمهورية الإسلامية ألقى د. محمد مهدي صادقي خطبة في هذا الاحتفال سجلت باللغتين العربية والفارسية، ووصفتها الإذاعة بأنها مهمة، ومما جاء في هذه الخطبة: (أصرح يا إخواني المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها أن مكة

(١) «الإسلام على ضوء التشيع»: (ص ١٣٢ – ١٣٣).

المكرمة حرم الله الآمن يحتلها شرذمة أشد من اليهود..)، وذكر قبل ذلك بأنه حين تثبت ثورته على أقدامها سينتقلون إلى القدس وإلى مكة المكرمة، وإلى أفغانستان وإلى مختلف البلاد[١]. وهكذا يعتبر الوضع في مكة كوضع القدس الذي يحتله اليهود ووضع أفغانستان التي يحتلها الشيوعيون[٢]]. [٣]

ويقول مرجعهم محمد آصف المحسني في كتابه (مشرعة بحار الأنوار) (١ / ٤٤): [أقول: وهذا الكلام لا يخلو من تعصب ونظر سوء كما هو الشائع بين أهل الأديان والمذاهب قديماً وحديثاً، ومن أشد هذه العداوات والعصبيات عصبية **الفرقة الضالة الوهابية القائمة اليوم بحكومة آل سعود على أشرف الأماكن الإسلامية طهَّرها الله من أرجاسهم**] إن فكرة الجريمة التي تخلقها تلك الطقوس تتمثل في ذلك الإلحاح الشديد والمتواصل من قبل أولئك المراجع والدعاة لجمهورهم من أجل جعل ذلك الجمهور بأجمعه مصراً على فعل تلك الجريمة والمتمثلة بالخروج على الحاكم، مستثمراً ومستغلاً كل السبل والأسباب، فمن خلال تلك الطقوس تبدأ الفكرة في هذا

---

(١) أذيعت هذه الخطبة من صوت الثورة الإسلامية من عبادان الساعة ١٢ ظهراً من يوم ٢٧/ ٣/ ١٩٧٩م. وانظر: «وجاء دور المسلمين»: (ص ٣٣٤- ٣٤٧).

(٢) وقد نقل رشيد رضا أن الرافضي أبو بكر العطاس قال: (أنه بفضل أن يكون الإنكليز حكاماً في الأراضي المقدسة على ابن سعود) «المنار»: (جـ٢٩/ ص ٦٠٥).

(٣) مسالة التقريب .

الجرم، وذلك من خلال الفصل بين شرعية الحكومات السُنّية وعامة الناس أو نقضها، كما عبر عن ذلك الشيخ الشيعي محمد السند في كتابه الشعائر الحسينية بين الأصالة والتجديد (٢/ ٣٤٠) حيث قال : [استطاعت كربلاء أن تنجح في فصل الشرعية عن السلطات الحاكمة والتي تتذرع بسُنَّة الجماعة] فهذه الطقوس تحشد تلك الفئة وتجيّشها من أجل أن تكون قوة ضاربة لاجتثاث أي حكومة لا تدين بالتشيع .

إن الغرض من تلك الطقوس هو خلق التصميم على تلك الغاية حتى المنتهى من تحقيق ذلك المقصد، ومكمن الخطورة فيها أنها تخاطب فكر الشيعي وعقله، بمختلف مستوياته وطبقاته، فتجعل منه خلية سرطانية منظمة في جسد كل وطن يمكنهم الانتشار فيه، وكلما توفر المناخ الملائم لتلك الطقوس ازداد حجم تلك الخلية السرطانية وازداد خطرها، ولا ينفع حينها إلا الاستئصال وربما يتوجب فوق ذلك قطع عضو من ذلك الجسد كي نسلم على البقية منه .

ولكن لو نظر المشرع وبقليل من التأمل إلى بدايات تلك التحريضات، ومآلاتها ومنشأها وآثارها على الواقع، لعلم أن تلك الطقوس التي دعت لتلك التحريضات، وخلقت من هؤلاء الدهماء والعلماء مجموعة من المجرمين، يتقربون بجرمهم هذا إلى الله جل وعلا .

إنَّ مَنْ شـرَّع لتلـك الطقوس أو دعـا إليها فهو مجـرم بالأصالة، ذلـك أنه بتلـك الطقوس سـقطت حكومات، وأبيدت دول، وشـرد وقتـل الملاييـن من أهل السـنة، والطقـوس التي تتظاهر بها الشـيعة في مناسـبات عديـدة طـوال السـنة وخاصـة في عاشـوراء، تُعَـدُّ من أعظـم مظاهر التحريض بكل أشـكاله وألوانه وفيه تكتمل كل أركان الجريمة، بل إن جريمة التحريض التي تدعو إليها تلك الطقوس ليس لهـا نظير في العالم، ذلـك أن جميع عوامل وأسـباب التحريض التي يدعو إليها المُحَرِّضون لأي قضية ما في العالم، لا تخرج عن أسباب ذاتيـة أو شـخصية تعـم الفـرد أو المجتمع، فتـزول آثارهـا ومآلاتها بزوال أسـباب تلك المُحَرِّضات ، لكن أسباب التحريض التي تدعو إليهـا تلك الطقوس لا تزول إلى قيام السـاعة مـا دام هنالك كيان أو بعث يدعى باسـم «**أهل السـنة والجماعة**» وإن الأسـباب التي تدعو لذلك التحريض هي أسـباب لا يمكن زوالها إلا بوقوع صورها على الأرض، والتي تعتبر عند عامة الشيعة من أعظم العبادات إلى الباري جل جلاله.

إنَّ السُـنّي وبالذات الحاكم السُـنّي لا يمكن وضعه عند الشـيعي إلا في خانـة المتهـم، بل في خانة المجرم الـذي تأكد وبان جرمه بكل الصور والدلائل، ومن الإسـراف في الخطأ أن نظن أن هنالك مجالاً لتصحيـح هـذا الوضـع بـأي حال مـن الأحـوال، أو يمكننـا توحيد الـرؤى ولـو على مر الزمان، فبتلـك الطقوس أصبـح الدين اليوم في

معـتركٍ رهيب، مفعم بالمخاطر مكتظ بالنوازل، ومحتشـد بالأفاعي والصِّلال، ومشـتبك بالعصي والحبال، في معترك غلب فيه الضجيج وعلا منه العجيج، وقد وقف فيه الأبناء على رمال متحركة لا يدرون إلى أين .. إلى ذلك الجسم الزاكي أم الى ذلك الجسم الفاني، والليل يتقلب والنهار وتتجلى الجروج والقروح، وتزداد المزوق والخروق، وبيننا وبين القوم ما قد علمه الدهران ولكن شتان بين صنيعنا وصنيع القـوم، القوم لـم يألوا جهـداً لنكاية إلا وقـد بلغوا فيه حـد الغواية، ونحن مشـغولون بذكـرى الأعمال، والتضحيـات الخطيرة لأولئك الآباء والأجداد، لعلنا بهذا الصنيع نقيل الكبوات، وننتشل الهفوات، وننتهج سبيل السعادات، وننأى عن مهاوي الشقاوات ..

فهـل يجـدر بنا يا قوم ونحن أبناء أولئك السـادات أن ندع تعاليم – ذلـك الدين القيم – تذهب منا ضحية لتلك الطقوس التي تتهاوى علينـا تهاوي الصـلال والأفاعي، ونحـن ننظر إليها من مشـهد ذلك الصوفي الذي أعياه الموت .. فما انفك على نفسه يدور ويحور ..

ننتظـر أن تكون الأمة ضحيةً لتلـك الطقوس التي طفقت تتوصل بسمومها القتّالة إلى أدمغة المسلمين بكل حيلة ووسيلة، حتى انخدع بها من شـبيبة المسـلمين من انخدع، ثم انقلبوا إلى أقوامهم يحملون ألويـة الباطل، وقد فاؤوا على رؤوسـهم دون أن ينظـروا أو يتبصروا بوعد الله ووعيده .

كيف للبصير الحكيم أن يمسـك صبره وهـو يرى أولئك الحثالة

يشُنُّون الغارات تلو الغارات على معاقل المسلمين، ففتحوا وجهزوا وقطعوا الأنفاس تلوا الأنفاس، ونحن نعلم أن أولئك الأوباش ليسوا بشيء لولا غفلتنا أولاً عن ديننا، ثم تلاحم الغرب معهم بعدته وعداته وسلاحة وكراعه ودسائسه ووساوسه، لم يألوا جهداً، ولم يدخروا وسعاً في سبيل إحياء تلك الصلال، متطوعين بين أيديهم، يعبدّون لهم السكك، ويقتلعون عن طريقهم الشوك والحسك، ثم بعد هذا المطاف والغمار، يُمَنُونَهم ويمدونهم بمال ورجال، وليت الخطب وقف عند هذا الحال، بل زاد من بليتنا أولئك السذج الذين وضعوا أنفسهم موضع المصلحين لهذه الأمة، وهم يفسدون أكثر مما يصلحون، ويهدمون أكثر مما يبنون، لا قصداً ولكن جهلاً وبلادة، وكم بين أظهرنا من هؤلاء الذين لا يميزون بين سوانح الخير وبوارح الشر .. ارتبكت عليهم السبل والمذاهب فخبطوا خبط عشواء في الليلة الظلماء، جهلهم في الأمر كجهل الناقة، فيا لله متى يزول الريب، وقد سلكنا هوة الطريق ..

فإلى متى يا قوم نقابل اليقظة بالسِنَة، والنباهة بالبلادة والبلاهة، والكياسة بضعف الرأي، وإلى متى لا نتعظ بالتجربة ولا توقظنا العبرة والمثلة .. كيف وقد أصبحنا ملء السمع والبصر، والرمل والحجر .

ألم يكفِ ما نشاهده كل يوم من ذبح وسلخ وحرق لأخوتنا، والقوم يرددون بكل صلف – لبيك يا زهراء – لبيك يا زينب – يا لثارات الحسين – ألم يكف هذا الخطب الفادح، والعمل الفاضح

الذي ملأ صدور المسلمين قيحا، وفجرّ عيونهم دمـًا؛ لأن يوقظنا من هـذا الرقاد، ولا يحسـبن أحد أن هذا هو غايـة منتهى آمال القوم، بل إنهم يريدون أن يزيدوا على الإبالة ضغثا، وأن يمعنوا في آلامنا فيذروا علـى الجـرح ملحا، ثم يَنْقَضُّـوا على قلوبنا وعقولنـا فينزعوا منها – ذلك الكتاب الذي لاريب فيه –وليس هنالك من منزع بالتغاضي عن تلك العاديات الطارية، فالقوم يَسـبُّون ويلعنون ويجاهرون بالتكفير ولـم يكتفـوا بذلك، بـل حولوا تلك المفـردات الى برك مـن الدماء بدعوى الولاء والنصرة لآل البيت صلوات ربي وسلامه عليهم، وما زال بعض الأغبياء يحسبون أن جُلَّ ما تعني تلك الطقوس والأعمال إنمـا هـو أذىً وضلال محصـور في تلك الطائفة، ولـن يتجاوزها إلا شـراً وإثمـًا، وما علموا أن لتلك الطقوس والأعمال أسـراراً ورموزاً ومقاصد وأدواراً ووظائف تشـمل السياسـة والاقتصـاد والاجتماع والأدب، وأن أولـى تلك المقاصد والوظائـف لتلك الطقوس، إنما هو تناول رأس الهرم للمجتمعات السُـنّية وذلك من خلال النيل من ساداتهم وحكامهم بالغدر أو الاغتيال أو المؤامرة.

وقـد أدرك هذه الحقيقة ساسـة الغرب، ومنهـم الحكيم الألماني المسيو ماربين حيث قال: [فإنا لم نرَ في سائر الأقوام ما نراه في شيعة الحسين من الحسيات السياسية والثورات المذهبية بسبب إقامة عزاء الحسين] وقد أجمع المحالف والمخالف وكل ذي حجى، أنه لولا تلك الطقوس والشـعائر، وأعواد تلك المنابر والاستدامة من مظاهر

الحزن والتوجع، لانطمست أعلام التشيع ولزال أثرها ..

إني وإذ أسُطر هذه الكلمات مع فريق العمل الذي يعمل معي في مركز الدراسات والبحوث العلمية بدار الآل والصحب الوقفية، بدافع الحب الصميم لأمتي مدفوع بمواقع الحزن والأسى، والقلب في ثنايا تلك المواقف، والأنفاس فيه هامدة، والعيون مغرورقة لجريان تلك الكارثة، التي حارت فيها العقول بالرغم من شدة وضوحها وبيان عوارها، فضربت فيها الحواس أخماساً وأسداسا، ويزداد بي الوجد والكآبة، وتتصاعد بي الحسرات، وتتصوب بي العبرات، ويغلب عليّ العنوان، وتنطلق في نفسي الرغبة، من أسف ذلك إلى البيان والتبيان.

❊ ❊ ❊

المبحث الثاني

التشيع منظمة سياسية تسعى للسيطرة على الأقاليم

حددت الهيئات الخاصة بتصنيف الجريمة خمس صفات لوصف عمل ما، توفرت فيه هذه الصفات بالجريمة المنظمة :

الأولى : النية لارتكاب الجريمة .

الثاني : التآمر لارتكاب الجريمة .

الثالث : اكتساب القوة والمال، والسعي للحصول على درجة عالية من الأمن السياسي والاقتصادي كدافع أساسي .

الرابع : المثابرة للتآمر خلال الزمن، أو الإصرار على التآمر عبر الزمن .

الخامس: استحصال الإطار الجزئي أو الكلي للمحافظة على مؤسساته السياسية والحكومية في المجتمع الذي ينتشرون فيه .

إن هذه الصفات الخمس، والتي إن توفرت في أية فئة أو مجموعة يطلق عليها بأنها منظمة إجرامية وحينها يلزم أخذ الاحتياطات والسبل كافة؛ لتحصين المجتمع منها والعمل الجاد لمحاربتها واستئصالها .

وهذه الصفات الخمس قد حواها التشيع وزيادة، فلو نظرنا إلى الصفة الأولى، وهي النية، لوجدنا أن نية الإجرام قائمة في كل فرد شيعي وبصورة مطلقة وبدهية، ذلك أن التشيع لا يقبل من أهله إيماناً حتى يعتقد بمبدأ الولاء والبراء في المخالفين والمقصود بهم

أهل السنة دون سواهم، وهذا المبدأ والذي يدعو إلى التكفير واللعن ومـن ثم حمل لواء الجريمة، والـذي يتمثل عندهم بالبراء وذلك من خـلال الدعوة للقتال، أو ما يسـمونه تقيـة – بالجهاد الكفائي – وإن هذه الطقوس خير من يجسـد هذه النية، لذا يمكننا القول بأن كل فرد يؤدي تلك الطقوس أو يدافع عنها بطريقة ما، فإنه يحمل في مكنونات نفسه كل دوافع الإجرام .

أمـا الصفة الثانيـةُ: وهي التآمر لارتكاب جريمـة الخيانة والمكر بالوطن وأهله، وهذه الصفة من أشـد الصفات ظهوراً في التشـيع من غيرهـا في أي مجموعـة أو عصبـة، فالذي يسـتقرئ التاريخ يجد من صفات التشـيع وسـماته البارزة هو التآمر مع أعـداء الأمة من اليهود والنصـارى، وكل عـدو غازٍ من أجـل اجتثاث هذه الأمة والسـيطرة على مقدرتها .

وأمـا الثالثة : فلطالما سـعوا لاكتسـاب القوة والمـال عن طريق الأخمـاس والمتاجـرة بالممنوع والمشـروع واسـتحداث المراقد، والتي تشـكل مصدراً أساسـيًا للنفوذ والقوة والمـال وغير ذلك من المصادر، والتي تؤّمن لهم قدراً كبيراً من السياسة والاقتصاد .

وأما الرابع: فهم من أشد الطوائف والمنظمات والعصب، مثابرةً ومن خلال الزمن لأجل تحقيق الغاية من ذلك التآمر .

وأما الخامس: فهم لم يألوا جهداً لأجل استحصال كل الأطر من أجل المحافظة على مؤسساتهم، وما يستحدثوه من أدوات الجريمة.

وهـذه الصفات الخمسـة لا تخرج عنها أية فئة من فئات التشـيع والتي تنتشـر في الأوطان السُـنّية؛ لـذا يلزم أن يعلـم أصحاب القرار والشـأن أن كل شـيعي يتواجد في البلاد السُـنّية إنما هو خلية جاهزة للتآمـر وارتـكاب أي جُرْمٍ يأمره به دينـه، وفي أي وقت من الأوقات، وأننا عندما نقول: إن التشـيع منظمة إجرامية استئصالية شوفينية عابر للأقاليم، إنما ننطلق من تلك الحقيقة الثابتة والمستقرة، والتي أكدتها صفحات التاريخ، ودماء الملايين من أهل السنة وعروش دولهم التي سقطت ضحية تلك المؤامرات وذلك الجُرْم، ولم ينفرد التاريخ، ولا تلك الدماء، ولا تلك العروش بتلك الشـهادة، وإنما قد شـهد بتلك الحقيقـة أيضـاً الكثير مـن علمائهم من خـلال تنظيراتهم ومقرراتهم في الفقـة والأصول والعقائـد، وقد كان من أبرز من قرر تلك الحقيقة هـو مرجعهم الكبيـر الإيراني الأصل محمد صـادق الروحاني، وقبل الخـوض في تفاصيل نظريته التي تشـير صراحة أن التشـيع عبارة عن منظمة سياسية غايتها اجتثاث الحكم السُنّي والتربع على عرشه، نود أن نشير إلى أهم ما تضمنه هذا التقرير :

- تقـرر تلك النظرية وتشـير إلى ذلـك التفاعل المسـتمر بين الفرد والجماعة عبر الزمان والمكان .
- حددت النظرية الأدوار والمكانات والتخصصات للعامة من أهل التشيع، والخاصة منهم .
- أشارت ولو ضمنـاً إلى التهديد بالقوة واستخدام العنف .

- مهنيـة جميـع أهل التشـيع في هذا المشـروع، ولا أعنـي بالمهنية الموضوعية كما قد يوهم السياق .
- النظـر إلى السـلوك الإجرامي كهدف يجب تحقيقه بكل السـبل والوسائل .
- النمـط الجرمـي المعقد البعيـد المدى ذو المسـتويات المتعددة والتنظيمات العالية .
- حماية النخب والدعاة من مخاطر التنظيم أو الإغراق في السلوك الجرمي وحمايتهم من المحاكمة والاعتقال .

علـى أننا يجـب أن نعلـم أن كل النظريـات وكل المؤمرات التي يحيكها التشيع ضد هذه الأمة لن يتحقق إلا من خلال تلك الطقوس، وذلـك؛ لأن تلـك الطقـوس ظاهرها السـلم وحقيقتها الجُـرْم، فهم ينغمسـون فيها أشـد الانغماس لأجـل التغطية على ذلـك الإجرام، ولأن تلـك الطقوس تشـبع مـا لدى العامـة من فراغ روحـي وخواء فكري، كما أنها تستلهم الجريمة وتطورها، وتبني لهم أعرافـًا وتقاليد تنمو بشـكل هرمي، كما أن تلك الطقوس دعوة باطنية للكيد والضر من خلال الإيماء أو الإشـارة لكل من عصى على التشـيع أو أبى أن يدخل فيها، وهو أسلوب مُطَّرد يستخدم على عامة أهل التشيع وعلى العامة من الناس خاصة من أهل السنة .

إن هـذه الطقـوس تدعو إلى وحـدة الحركة في الأبـدان، كما أنها تنتج نمطـًا فكريـًا واحداً، وهو ما يسـمى بالعقل الجمعي، وبعد هذا

الاستعراض لبعض مظاهر هذا الجرم آن لنا أن نعرض نظرية هذا المرجع كما سطَّرها هو بسنان قلمه، وذلك من خلال إدراجها في كتابه الكبير المسمى (فقه الإمام الصادق) ليؤكد بهذا الإدراج على تلك المنهجية المتأصلة في عقيدة هؤلاء المراجع، والتي يلزم العوام العمل بها حتى تقوم دولة الإمام الموعودة ..

ففي تلك النظرية وضع لأولئك العوام آلية للتعايش مع الحكومات السُنّية في حال الضعف، وفي حال التمكين والقدرة، بما يكشف تلك الحقيقة التي طالما استبعدها الإسلاميون والسياسون على حد سواء، وهي أن التشيع في حقيقته منظمة سرية إجرامية شوفينة لا تَدِّخر وسعا، ولاتألو جهداً؛ لأجل السيطرة على أقاليم الأمة الإسلامية، وإسقاط عروش الحاكمين عليها .

وكأنَّ هذه النظرية قد ترجمت حرفيًا على واقع الخيانة الشيعية يوم أَنْ أسقطوا الخلافة أيام حكم بني العباس وذلك بالأمس القريب، ثم بإسقاطهم اليوم كابول وبغداد ..

يبدأ الصادق !! الروحاني !! عرض تلك النظرية ويشترط في نجاحها العمل بمبدأ التقية، وقد عرفها هو بما يوافق تحقيق الغرض من تلك النظرية فقال : [التقية الكتمانية، وهي عبارة عن كتمان المرام والمذهب وعدم ترويجه ظاهراً، بل السعي فيه سراً، وذلك فيما إذا ترتب على التظاهر به مفسدة مهمة كهلاك النفس، وتشتت الجمع، والمنع من رواجه، وما شاكل، كما كان الأمر كذلك في أزمنة

الأئمة المعصومين عليهم السلام][1].

والتقية الكتمانية هي: قسم من أربعة أقسام من التقية وهي أخطرها، كما وقد عرفها الخميني بمعنى يشي بمعانٍ كثيرةٍ وخطيرة، حيث يقول: [(ومنها) ما تكون مطلوبة بذاتها في دولة الباطل إلى ظهور دولة الحق، وهي التي في مقابل الإذاعة، ومساوقة للكتمان].[2]

فتأمل قوله : [كتمان المرام والمذهب ..الخ كلامه] فإنه يستفاد منه ما يأتي :

- سرية العمل.
- سرية تنظيم الأفراد لانخراطهم في هذا العمل
- الدعوة إلى إضمار التكفير والخروج على دخن ولؤم .

والدعوة إلى الإضمار ليس دعوة إلى التعايش السلمي ، ففرق بين إضمار التكفير ، والخروج على دخن ولؤم وغل، وبين التعايش السلمي المنبني على قوانين العيش المشترك .

- اعتراف الروحاني بأن الدعوة إلى دين التشيع، دعوة تخالف ما تعارفت وتسالمت عليه الأمة الإسلامية منذ زمن أبي بكر وعمر إلى يومنا هذا؛ لذا فإنها دعوة تجرُّ على أصحابها المهالك والشتات ، إذ أنها تصطدم صراحة مع أصول وثوابت الأمة .

---

(١) فقه الصادق لمحمد صادق الروحاني ١١/ ٤١٥ .

(٢) الرسائل ٢/ ١٧٥ للخميني .

شرعنة هذا التنظيم لعامة الشيعة

ثـم يـأتي الروحاني بما هـو أصرح من ذلـك فيبـدأ في مصنفه هذا بشرعنة التنظيم والانخراط فيه على شرط أن يجعلوا التقية الكتمانية له شعاراً ودثاراً حتى تكون درعـًا أو ترسـًا لأولئك المنتظمين، ويبني اسـتدلاله على وجوب هذا التنظيم على العقل لا على النقل فيقول: [فالظاهـر مشـروعية التقية بـل وجوبها، ويشـهد به اسـتقلال العقل بذلـك، واقتضـاء الفطرة السـليمة له، فإنه إذا اجتمـع جماعة قليلون وشـكلوا جمعية لها مرام ومسـلك مخصوص، يتوقـف إجراء مواد ذلك المرام على أخذ الحكومة والسيطرة على أفراد المملكة، وكانت الحكومـة بيد من يُخالف ذلك المرام، فلا ريـب في حكم العقل بأنه يتحتم عليهم كتمان المرام في أول الأمر، والسعي في ترويجه وتبليغه سـراً، فإنه ما لـم يأخذ الحق الـذي يرونه نصابه، أوجـب التظاهر به اسـتئصالهم عن آخرهم، واضمحلال الحق باضمحلال أهله، وبعد أخذ الحق نصابه يتحتم التظاهر والقيام لإحياء المرام ونشره. ويشير إلى ذلك بعض النصوص الصادرة في ظرف لم يأخذ مذهب التشـيع نصابه، وكانت الحكومة بيد خلفاء الجور المخالفين للمذهب].

فتأمل جيداً قوله : [فإنه إذا اجتمع جماعة قليلون وشكلوا جمعية لها مرام ومسـلك مخصوص، يتوقف إجراء مـواد ذلك المرام على أخذ الحكومة والسـيطرة على أفراد المملكـة، وكانت الحكومة بيد من يُخالف ذلك المرام].

فهي دعوة لإقامة ذلك التنظيم الذي يطمح لاجتثاث الحكومات السُنّية في أي مكان يمكن للتشيع أن ينتشر فيه، وذلك من خلال التغلغل بين عوام وحكام المملكة أو الدولة، كما أن في قوله [يتوقف إجراء مواد ذلك المرام على أخذ الحكومة والسيطرة على أفراد المملكة، وكانت الحكومة بيد من يُخالف ذلك المرام] بأن المرام وهو نشر التشيع ولو بالقوة من بعد اجتثاث الحكومة السُنّية، كما فعلت ذلك الدولة البويهية والصفوية والعبيدية والقرمطية والقاجارية والخمينية ، وأما قوله :

[إنه ما لم يأخذ الحق الذي يرونه نصابه] فهي دعوة لعدم الشروع في العمل من حيث التكفير واللعن، وغير ذلك من مظاهر التشيع والخروج، ما لم يتم النصاب، وهو توفر الظروف المناسبة للظهور والإعلان والخروج، من خلال توفر القوة الداخلية، أو القوة الخارجية الغازية القاهرة والتي تعلن موافقتهم لمشروعهم ومرامهم.

وفي حالة عدم النصاب هذه لا ينبغي توقف العمل في هذا التنظيم لأجل اجتثاث ذلك البعث السُنّي، وإنما التترس بتروس التقية، والعمل بما يسميه الخميني – المقاومة السلبية – يقول في رسائله: [ومن أن ذلك ينافي المقاومة السلبية التي يستظهر من الأخبار لزومها، فإن التصدي لبعض الأمور – أي العمل في صالح الدولة السُنّية – ربما يؤدي إلى بقاء السلطان الجائر]. [1]

(١) ثلاث رسائل مصطفى الخميني .

والنصاب الذي يشير إليه فقهاء الشيعة، والذي جعلوه شرطاً للخروج على السطان الجائر، اختلفوا في ماهيته وحدوده، وبالاستقراء وجدت أنهم يأمرون بالخروج متى توفرت الفرصة، بغض النظر عن تمامية ذلك النصاب من عدميته، يقول الشيخ المنتظري : [والثورة ضد الحكومات الجائرة، ويأتي كلام الإمام الصادق لسدير الصيرفي: ياسدير، لو كان لي شيعة بعدد هذه الجداء ما وسعني القعود، وكان مجموع الجداء سبعة عشر] [1] وهم ما داموا في إطار الضعف وعدم التمكين فإنهم يؤكدون على اتباعهم العمل بتلك النقطتين والتي أشار لها محمد الريشهري في كتابه : [القيادة في الاسلام] حيث قال : [قام أوصياء النبي صلى الله عليه وآله بعملين أساسيين في حقل التمهيد لحكومة الإسلام – حكومة التشيع – العالمية ، هما :

١ – تجريد الحكومات الجائرة – الحكومات السُنّية – من الصفة الشرعية، وتحريم كل نوع من أنواع التعاون معهم، بما في ذلك مراجعتهم لأخذ حقهم .

٢– الإعلان عن مرجعية الفقهاء العدول وحاكميتهم .

وقضية الإعلان عن مرجعية الفقهاء وجعلهم الحكام الحقيقيين بدلاً من حكام السُنّة في البلاد السُنّية أمر قد تواطأ عليه الشيعة واتفقوا عليه، بل ورثوه عن سالف مراجعهم وهو عندهم من أعظم

(١) دراسات في ولاية الفقيه الشيخ المنظري ١/ ١٩٢.

المُسَـلَّمات؛ لذلك فيبنغي على ولاة الأمر في البلاد السُنّية أن يعلموا أن الشـيعة علـى العموم إنمـا هم دولـة داخل الدولـة؛ لأن المرجع الدينـي الموجود في داخـل تلك البلاد لا يقتصـر دوره على التوجيه والإرشـاد الديني، وإنما يشمل توجيه الشـيعة في كافة مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية وكل ما يخص أمر الدين والدنيا.

دولة إبليس :

وهم يُسَمُّون الدول التي يرأسها أهل السُنَّة بدولة إبليس، وقد أكد هذا المعنى الروحاني في كتابه (فقه الصادق) بروايته لهذه الرواية :

[سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : إن التقية من دين الله، ولا دين لمن لا تقية له، والله لولا التقية ما عبد الله في الأرض في دولـة إبليـس) فقال رجل : ما دولة إبليس؟ فقـال : (إذا وُلِّيَ إمام هـدى فهي دولـة الحق على إبليس، وإذا وُلِّـيَ إمام ضلالة فهي دولة إبليس)] [١]، وعلّق على هذا الحديث مُقرراً موافقته لدلالة الحديث بكـون كل دولـة حاكمها من غير الشـيعة فهي دولة إبليـس[٢]، بقوله

---

(١) فقه الصادق (ع) – السيد محمد صادق الروحاني – ج ١١ – شرح ص ٤١٧.

(٢) والـذي يدل علـى أن مرادهم بدولة إبليس هو: كل الحكومات الإسـلامية التي قامت من وفاة النبي e وإلى قيام السـاعة وعلى رأسـها خلافة الخلفاء الراشدين الثلاثة – أبو بكـر وعمر وعثمـان رضي الله عنهـم– ما جاء في تكملـة نفس الرواية التي اسـتدل بها مرجعهم الروحاني –والمنسوبة لعلي رضي الله عنه ظلماً وزوراً– حيث قال فيها: [ثم همس إلى عمار ومحمد بن أبي بكر همسة وأنا أسمع، فقال: (ما زلتم منذ قبض نبيكم في دولة إبليس بترككم إياي واتباعكم غيري].

(١١/ ٤١٧): [والمستفاد من هذا الخبر أمران: أحدهما: أن التقية في زمان دولة إبليس سبب لبقاء عبادة الله، وبديهي أن هذه الخاصية مختصة بهذا القسم من التقية].

كما أنهم يقررون أنَّ حكام أهل السُنَّة يمثلون خلفاء الجور والطغيان يقول : (١١/ ٤١٦): [وكانت الحكومة بيد خلفاء الجور المخالفين للمذهب].

ثم بيَّن هذا الروحاني أن لهم حالتين في التعاطي مع الحكومات المخالفة – أهل السُنَّة – في سبيل تحقيق اهدافهم ومخططاتهم :

الحالة الأولى: حالة الضعف وعدم بلوغهم النصاب المطلوب:

وهي التي عبر عنها بقوله (١١/ ٤١٧): [فإنه يدل عليه أيضاً جملة من النصوص الصريح طرف منها في مشروعية هذه التقية بهذا النحو الذي ذكرناه في ظرف لم يأخذ المذهب الحق نصابه].

وقال (١١/ ٤١٦): [فإنه ما لم يأخذ الحق الذي يرونه نصابه، أوجب التظاهر به[1]، استئصالهم عن آخرهم واضمحلال الحق باضمحلال أهله].

وقال (١١/ ٤١٦): [ويشير إلى ذلك بعض النصوص الصادرة في ظرف لم يأخذ مذهب التشيع نصابه].

---

(١) أي التظاهر بمرامهم وأهدافهم، وهي السيطرة على زمام الحكم وإسقاط العروش القائمة.

وفي حالة ضعفهم هذه يتلخص سعيهم لتحقيق أهدافهم في أمرين هما:

١ـ كتمان مرام المذهب وأهدافه.

٢ـ السعي لترويج المذهب سِرّاً، حيث قال:

أ ـ (١١/ ٤١٥): [وهي عبارة عن كتمان المرام والمذهب وعدم ترويجه ظاهراً، بل السعي فيه سراً].

ب ـ وقال (١١/ ٤١٦): [فلا ريب في حكم العقل بأنه يتحتم عليهم كتمان المرام في أول الأمر والسعي في ترويجه وتبليغه سراً].

ج ـ وقال (١١/ ٤١٧): [فإنه إذا لم يكتم أمرهم في بدو الأمر، ولم يَسْعَ في ترويجه سراً لما بقي من المرام والمسلك وأهله إلا الاسم].

د ـ وقال (١١/ ٤١٧): [إن هذا القسم من التقية إنما يكون بالسعي في ترويج المذهب سراً[1]، لا في كتمانه خاصة، إذ في فرض الكتمان بلا تبليغ ينقرض المذهب بانقراض تلكم الجماعة الخاصة، فيعتبر في المقام ترويج المذهب سراً].

هـ قال (١١/ ٤١٨): [وفي ذيل الخبر عبَّر عن هذا العمل بالعبادة

---

(١) تأمل صراحته في جعل كتمان المذهب ومخططاته والسعي لتحقيقها سراً من أقسام التقية؛ لتعرف الكذب الفاضح الذي ارتكبه مرجعهم ومحققهم جعفر السبحاني حين قال في كتابه (الاعتصام بالكتاب والسنة] (ص٣٣٨): [إن التقية بمعنى تشكيل جماعات سرية لغاية التخريب والهدم، مرفوضة عند المسلمين عامة والشيعة خاصة، وهو لا يمت إلى التقية المتبناة من قبل الشيعة بصلة].

في السـر، فيسـتفاد من ذلك أن التقية التي هي دينه ودين آبائه هي كتم المذهب عن المخالفين والسعي في رواجه سراً].

الحالة الثانية: حال التمكين والقوة ببلوغهم النصاب المطلوب:

وهـي المرحلة الأخطـر والمتمثلة بإعلان أهدافهـم وخروجهم علـى تلك الحكومات وسـعيهم لإسـقاطها، فقـال (١١/ ٤١٦): [وبعد أخذ الحق نصابه يتحتم التظاهر والقيام لإحياء المرام ونشره].

ومـن براهيـن قولنا علـى أن التشـيع برمته تنظيم سياسـي غير ما تقـدم هو أن المذهـب برمته يتبع سياسـة التقليد التـي تبيح للمرجع أن يحـرك تلك الحشـود بحرفيـة وحرفية تلك الحـروف التي تتقطر إجرامـاً وقطرانـاً ، فحينمـا دعا السيسـتاني للجهاد الكفائي تشـكل الحشـد الشيعي، وهبَّ الشـيعة برمتهم برغم اختلاف المرجعية إلى تلبيـة ذلك النـداء؛ لأنه نداء عـبر بالحقيقة عن مكنونـات صدورهم تجاه أهل السـنة والجماعة والتي شكَّلتها لهم حروف تلك الروايات المشؤومة، والتي نُسبت ظلماً وزوراً إلى أهل البيت سلام الله عليهم، نسأل الله أن يتنبَّه حكامُ المسلمين وعلماؤهم ودعاتُهم لِمَا يُحاكُ لهم في الظلام من قِبَل فرقة تنظر إلى جميع الحكومات منذ صدر الإسلام وإلى قيام السـاعة- وعلى رأسـها حكومة الخلفاء الراشدين أبو بكر وعمـر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين- بأنها إبليسـية كافرة جائرة، ولـذا تراها تسـعى جاهـدةً لإسـقاطها إما بيديهـا إن امتلكـت العدة والعدد أو عن طريق التآمر مع الكفرة والغزاة .

المبحث الثالث

الطقوس والشعائر الحسينية وأثرها في تشكيل الهوية المذهبية المعادية للأمة ودورها في التحريض

الحديث عن الهوية التي تؤسَّس لها هذه الطقوس ليس من قبيل الترف الفكري، بل حديث عن طرق التأسيس والتوظيف لهذه المؤسسة الإجرامية التي عاثت في الأرض فساداً ووسيلتها التي خفي أثرها في التأسيس لذلك الإجرام وذلك الفساد، هو تلك الطقوس ، والتي شكَّلت لهم الهوية وحددت لهم القضية ورسمت لهم بدايات ومآلات الطريق، وهي التي تشكل لهذه الطائفة المنشقَّة البصمة التي تميزها عن غيرها، وهي الثابت القابل للاستحداث والتجديد، ولكنه في ذات الوقت غير قابل للتغيير والتبديل أو الاستعاضة، وهم يعلمون ويطلبون البقاء والتميز بتلك الطقوس وإلا فسيفقدون الخطوط العامة والأساسية لهوية التشيع؛ إذ إن التشيع بدون تلك الطقوس خاوٍ فكريا، وليس له رصيد من العمل أو الحركة في جوانب الحياة، ومن ثم تلاشي شبكة العلاقات الاجتماعية فيه، ثم تكون النتيجة السقوط المدوِّي والتداعي لطمس معالم الوجود، ومحو الأثر من ذاكرة التاريخ .

يعرف الجرجاني الهوية بأنها: [الحقيقة المطلقة المشتملة على

الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب][1].

ويمكننا القول عن هذه الطقوس: بأنها تشكل الجوهر والحقيقة عند عامة الشيعة، كذلك هي تشكل وتؤسس لتلك المادة الإعلامية الدينية، والتي من نتاجها المحافظة على تلك الهوية، يقول الشيخ محمد السند في كتابه الشعائر الحسينية بين الأصالة والتجديد ١/ ١٨٩: [أحد وظائف الشعائر الدينية حيث تؤدي دور الإعلام والبث الديني والإعلاء، ومن نتائجها المحافظة على الهوية الدينية في بيئة المسلمين؛ لأنه لولا الشعائر فإن الدين سوف ينكفئ شيئا فشيئا، وتتغير المفاهيم الدينية، بل تنقلب رأسا على عقب، وتصبح منكوسة الراية] ويقول أيضا: [فمن الوظائف المهمة للشعائر الدينية جانب المحافظة على الهوية الدينية وإلا أُلغيت الشعائر الواحدة تلو الأخرى].

عناصر الهوية في تلك الطقوس :

تحمل الطقوس الشيعية عناصر عدة شكَّلت الأساس والعلامة الفارقة للهوية الشيعية المميزة ، وإن أهم تلك العناصر :

١ - الولاء والبراء، حيث تبرز الطقوس وبشكل جلي عقيدة الولاء والبراء، وترسم ملامحه وشواهده أمام الخاص والعام، فهذه الطقوس ليست أدوات لجلد الذات أو مجرد انفعالات تعبر

(١) التعريفات للجرجاني ٣١٤ .

عن حالة من التعاطف لمشاهد الطف، بل هي دعوة صميمية لتولي وتبني كل مظاهر التشيع، والبراءة والعداء لكل مظاهر التسنن، يقول الشيخ رضا باباني: [ولاداعي للتذكير بأن إقامة العزاء الحسيني هو من أبرز مصاديق التولي والتبري، اذاً فالبكاء والعزاء نقطة البداية في إحياء أصل من أصول الدين وهو الإمامة فتقوى بذلك شوكته].[1]

وعن الإمام الصادق في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام : ٨٢] ، قال آمنوا بما جاء به محمد صلى الله عليه واله، ولم يلبسوه بظلم، أي لم يخلطوه بولاية فلان وفلان – أي الإيمان بحكومة أبي بكر وعمر –].

ومن خلال هذا الإطار وتلك الدعوة فإنه يؤسس لذلك المجتمع الذي يرفض ابتداءً التعايش مع محيطه السُنِّي وبصورة مطلقة، وبهذا الإطار يتدين بالتعنصر إلى طائفته والانتماء لها والدعوة إليها ولو عملت كل الموبقات، كما أنه من خلال هذا الإطار يتدين بعداوة المجتمع السُنِّي والعمل على زعزعته، ونشر الفتن والفوضى، وتمزيق نسيجه من أجل التهيئة لاجتثاثه واستئصاله ، وليس هنالك من بأس في أن تبدأ مظاهر العداء وشواهده من قاعدة الهرم، وهي المجتمع أو من قمته، وهي الحاكم السُنِّي، فأما تناولهم لقمة الهرم في المجتمعات السُنِّية، فشواهد التاريخ في ذلك كثيرة منها وأبرزها:

---

(١) مجالس العزاء الحسيني بدعة ام سنة ص ٣٣٨ .

طريقتهم في اغتيال عمر بن الخطاب وصلاح الدين الأيوبي وأمثالهم من قادة الأمة في القديم والحديث، وأما استخدامهم للقاعدة وتأليبها وتحريضها على قادة الأمة فيتجسد في كثير من المشاهد في التاريخ أبرزها طريقة اغتيال الخليفة عثمان بن عفان .

وهذه الطقوس لا تمثل عند الشيعي مجرد آيدلوجية، وإنما هي العلم والعمل الشامل والمحيط، بل هي وحي السماء، كما صرح بذلك بعض زعامات التشيع، وهي الميزان المستقيم، والحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهي تلك المنظومة القيمية والتي تحدد لأي شيعي السلوك العام في المجتمعات المؤالفة والمخالفة، وهي الخط النسبي المستقيم الذي يوصلهم لهدفهم المنشود ولو كان بتلك المرحلية البطيئة، ويمكننا القول إن التشيع يتمحور في كل مكان وزمان على تلك الطقوس حيث أنها تحمل كل عناصر التشيع ، كما أنها تحمل كل أسباب البقاء والديمومة ، وهي أفضل الأدوات على الإطلاق في إعلان الهوية الشيعية المشتركة ، فمن خلال تلك الطقوس يمكن الإشارة إلى قوة الحضور الشيعي وتمكنه في تلك البلاد التي سمحت بتلك الطقوس، ومن خلالها أيضا يمكن معرفة حجم الضغط للقوى الشيعية السياسية، والتي من خلال النظر إلى مآلات تلك الطقوس والتفاوض مع تلك الحكومات وفق تلك الدلائل والمؤشرات .

إن الشعائر أو الطقوس هي أقوى وأشدّ رسوخاً في حياة الإنسان، بل هي أشد رسوخا من العقيدة نفسها، وذلك لأنها سهلة المنال، ولأنها تعبير حقيقي وصميمي عما تجيش به تلك النفس من عقد وكوامن، ولأنها تعبير صارخ لكل تلك الخلجات والضمائر ، ولأنها تعبر عن عيد حقيقي لتلك الطائفة ينتظرونه كل عام ليزيح همها، ويزيل بها كربها ، لذلك من الصعب إزالة تلك المظاهر، بل إنها أصعب من إزالة الاعتقاد نفسه، وذلك بسبب التعامل المباشر مع تلك الظواهر والطقوس .

وما لا يكون بالفكر والعقيدة، قد يمكن أن يكون بالتصور والعقل الجمعي، وبهذا العقل يمكن اختزال كل العقيدة بتلك الطقوس والمظاهر، بل ربما بمظهر واحد ، ومن ثم يكون هذا المظهر هو العقيدة نفسها التي يقوم عليها الولاء والبراء وبصورة مطلقة .

كما أن تلك الطقوس تضجّ في تلك الروح المأزومة التي تشكوا في كل حالاتها من الضعف والاستضعاف والمظلومية، مع الروح الثورية التي تساعدها على الحركة والهيجان وبشكل منفلت، فتقف مانعا وعائقا أمام أي جسم أو كائن غريب، وهي النواة لكل راكب وداعٍ لأي ثورة تنفس ابتداءً أو تعبر عن تلك الطقوس، وإنْ كان ذلك الداعي هو الشيطان الرجيم .

والطائفة ومراجعها مدركون لتلك الحقيقة؛ لذلك فهم من أحرص الناس على بقائها وإدامتها، كما أنه يجب علينا أن ندرك

حقيقة مُطَّرِدة، ألا وهي أن الشعوب دائماً وأبداً منتجة للمعتقدات الشعبية والممزوجة بالخرافة والأساطير إنْ خلت من قيام دعوة الحق، فعلماء الملة هم وحدهم دون سواهم يمثلون المصفاة التي تنقي كل تلك المنتجات الملوثة بالخرافة والوهم، وإذا ما تعطلت تلك المصفاة تلوث مناخ الأمة كله، وصار من المستحيل ديمومة الحياة فيه .

عداءٌ دائم ، وثأرٌ قائم :

لا تخفي الطقوس الشيعية ذلك العداء العريض الذي توجههُ نحو المحيط السُنِّي، كيداً وضراً، ولو نظرنا إلى كل طقس من تلك الطقوس لوجدناه فيضاً من العداوات والثارات التي لا تنتهي، وهذه الطقوس تعتبر بحق مظاهرة ضد أهل السُنَّة والجماعة شعوباً وحكومات كما صرح بذلك أحد مراجعهم فقال : [إن تلك الأعمال – أي الطقوس – عندهم – أي الشيعة – كتظاهرة كبرى ضد أعداء الحسين سلام الله عليه، الذين يُخَطِّئون الحسين سلام الله عليه في قيامه ضد الدولة الأموية ويبررون إقدام يزيد على قتل الحسين، وهؤلاء موجودون بيننا وفي عصرنا بكثرة]، فهو عند البكاء، يتوجع وفي داخلة تلك العقبة الكؤود التي يجب إزالتها من أجل إقامة حكم الشيعة والذي هو في نظرهِ – حكم أهل البيت سلام الله عليهم – وحين يلدم على رأسهِ فإنما يوبخ نفسه التي تأخرت في أخذ الثأر من ذلك الشاخص السُنِّي ، بغض النظر عن ماهية هذا الشاخص بشراً أم حجراً.

وحيث يضع ثنايا السيف على مفرق رأسهِ فإنما يهيئ نفسه المترعة بالغل والحقد لأن يعمل هذا السيف مليـاً في رؤوس أهل السُنَّة وفي مقدمة تلك الرؤوس أولئك الحكام الذين يتقربون إلى الله بالحكم بكتاب الله وسنة رسوله صلوات ربي وسلامه عليه .

إن مثل تلك الطقوس وأثرها في عامة الشيعة، كمثل قدر كبير وضع فيه عامة أهل التشيع، ثم وضعوا على نار تلك الطقوس فزادتهم نضوجاً لغاية تلك النار المتأججة .

إن العمل بتلك الطقوس يحقق أموراً كثيرة هي في صالح تلك العقيدة الثأرية والانتقامية منها :

- تهيئة العوام نفسيا وآيدلوجيا لتلك العقيدة .
- تدريبهم على إيقاع تلك الأحقاد على أرض الواقع السُنِّي، فإن تلك الطقوس تعتبر الأصل والأساس في الإعداد والإيجاد والإمداد لتلك الحرب التي يستأصل فيها شأفة أهل السُنَّة والجماعة، يقول شيخهم عبد الوهاب الكاشي : [أضف إلى ذلك أن قيامهم بتلك الأعمال هو بمثابة تدريب وتمرين على خلق الروح النضالية الفعّالة والمعنوية العسكرية الراقية لا تتحقّقان لدي شباب الأمة بمجرد بعض التمارين الخالية الجوفاء والتمثيليات الفارغة التي لا تخلق سوى جيشٍ انهزامي فرار غير كرار ويصدق عليهم قول الشاعر العربي القديم:

وفي الهيجاء ما جرّبت نفسي ....ولكن في الهزيمة كالغزال

- ويقول أيضا : [أجل! إن الاستهانة بالموت تحتاج إلى تهيّؤ،

وتدريب جدّي وتمارين شـاقة خشنة، وإلاّ فالواقع ما قاله البطل الثائر زيد بن علي بن الحسين (عليه السلام): (ما كره قوم حرّ السيف إلاّ ذلّوا)].[1]

- التذكيـر الدائم بتلـك العقيدة المأزومة والتي عبروا عنها بتلك الكلمـات التي تقول : [كل يوم عاشـوراء، وكل أرض كربلاء] وهذا يعنـي أن الشـيعي ينبغـي أن يعمل على أن تكـون كل أيام أهل السُـنَّة والجماعـة مملوءة بالقتل والدمـاء والأحزان، والمآتم والحسـرات، كما حصل في يوم عاشـوراء سـنة أربعين للهجرة، كما أن هذه الصورة الدمويـة لا يجب أن تقتصر علـى أرض دون أرض، وإنما كل الأرض يجب أن تتحقق فيها المأساة التي جرت في كربلاء؛ لذلك هم يؤكدون: وكل أرض كربلاء، ولك أن تتصور الشيعي وما يعتمل في صدره وهي يلدم على الرأس والصدر وهو يردد:

ياللي ما تنسى ثارك
ملينا انتظارك
يتأملك .. يالمنتظر
ضلع الوديعة

تأمـل كيف يخاطب المهـدي بذلك الخطاب الذي يشـي بتأخر تحقيـق عملية الثأر من أولئك الذين يترضون على ذلك الرجل الذي كسـر ضلع فاطمـة الزهراء سـلام الله عليهـا (فاروق الأمـة عمر بن

(١) الشعائر الحسينية في الواقع الفقهي شاشة : ٣٥٦.

الخطاب رضي الله عنه !).

تأمل هذا التحرق الكبير واللهفة العارمة من أجل تحقيق هذا الثأر وإيقاعه على الأرض، فهو بتلك العملية وتحت ايقاع ذلك النغم لا يجلد ذاته كما يتصور بعض الواهمين وإنما يتطلع إلى رقاب المخالفين فيعمل فيهم السيف .

ولأن هذه الطقوس تعزز وتؤكد وتقرر أنَّ أهل السُنَّة قاطبة هم الأعداء الحقيقيون لأئمة أهل البيت سلام الله عليهم، وأن كل ما جرى من ظلم وظلامات عليهم، وعلى عامة الشيعة، إنما هو لتولي أهل السُنَّة الحكم، وعملهم بشريعة أبي بكر وعمر المبرزين والمقدمين في الظلم، وذلك من خلال اغتصابهم للخلافة الحقة وهضمهما، وكسرهما لضلع ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لذلك فإن هذه الصورة العريضة من المظالم والتي تصورها تلك الطقوس تجعل من المستحيلات التسامح أو التغافل عن ذلك الثأر ولو عن ذلك الشيخ الكبير أو ذلك الطفل الرضيع .

وإن شئت فاسمع إلى ذلك الرادود وهو يغرس في نفوس أولئك اللاطمين ذلك المعنى العريض :

يابن الغوالي ... ما تبقى غايب
لا بد تصيح ساعة فرج تعلن قدومك
شفت العجايب .. من ها النواصب
لو تذبح اللي بالمهد .. ماحد يلومك

يعتقد الكثير ممن سار في دروب الغفلة واستهوى غوايتها واستلهم من سرابيلها حتى غذت عنده الأوهام التي ضاقت بها الأحلام حقائق مسلمة أن تلك الطقوس عمل تعبدي صرف وليس له تعلق بسياسة الدولة التي يقام فيها .. مع أن الحقيقة الشاخصة وبقوة، والتي يجب على جميع أهل السُنَّة أن يدركوا حقيقتها وكنهها، أن هذه الطقوس هي دين وسياسة معًا، فبالقدر الذي يسعى فيه أولئك الذين يمارسون تلك الطقوس، والدافع الرئيسي لهم ابتداءً هو الحصول على الثواب، وإلا لما سعى وأتعب نفسه وأهله بالسير لمئات الكيلو مترات سعيًا في طلب الشفاعة والثواب من ذلك الإمام الذي يتوجه له بذلك المسير، وليس عبثًا ذلك المسير من ذلك المريض وتلك المرأة التي لا تنجب وتلك الأم التي فقدت ابنها في تلك الحرب العبثية والتي لا يدرى من الذي أشعلها ومن الذي سوف يطفيها، كل أولئك السائرون إلى تلك القبور والقائمون في ثنايا الطريق وجوانبه من أجل تقديم خدماتهم إلى أولئك – المَشّاية – كل أولئك يرومون لتحقيق أحلامهم ورغباتهم عبر ممارسة تلك الطقوس، لكنه وهو يسعى جاهداً لنيل تلك الأماني العريضات لم يغب عنه السعي الجاد والحثيث من أجل تحقيق الغاية الأساسية من تلك الطقوس، وهو نشر وبسط الهوية الشيعية في كل شبر تطأه قدمه .

إن هذه الجماهيرية والتي تسعى للانخراط في تلك الطقوس بشكل طوعي وعفوي، إنما تسعى لتثبيت مسار الهوية الشيعية .

المبحث الرابع

الوظائف والأدوار التي تشكلها تلك الطقوس ضد الحكومات السُنِّية

ونقصد بالتوظيف هو تلك الأداءات التي يقوم بها الشيعة ومن خلال تلك الطقوس للتأثير على النظام الاجتماعي وتؤثر في هيكليته بسلبية تامة، ويكون ذلك التأثير لتلك الطقوس من خلال التأكيد على محاور ثلاث تكون عامة ومطردة في كل الطقوس والعزاءات:

الأول : ذكر فضائل أهل البيت ومناقبهم الأسطورية، وبشكل خرافي ينزع عن أولئك المتلقين صفة العقل .

الثاني : الإعلان عن مظلومية أهل البيت عليه السلام بالوضع والافتراء، وذلك من أجل التأكيد على قضية الولاء والبراء من أولئك الظالمين .

الثالث: العمل على سلب شرعية كل الأنظمة السُنِّية وذلك من خلال التأكيد والتمثيل على كفرهم وردتهم عن دين الله ومناصبتهم العداء لأهل البيت وأشياعهم، وهذا المحور غرض أساسي وصميمي من تلك الطقوس ، وهذا التوظيف في تلك المحاور الثلاث يتحقق من خلال طريقان :

أحدهما ظاهر، وهو ما يُطَبَّق بقصد مسبق، والآخر مستتر وهو ما يخلو من ذلك القصد ، وإنما قد يكون تديناً وتعبداً .

فمن تلك الوظائف الظاهرة :

١ - الغرض السياسي :

لا جرم أنَّ أهم معطيات العزاء والطقوس منذ أن تأسست وإلى الآن هو تحقيق ذلك الغرض السياسي الذي أُنشئت من أجله وهو إسقاط الشرعية عن الأمة السُنِّية وبشكل مطلق ، والمتتبع لتلك الطقوس يجد ذلك التوظيف لتلك العواطف والأحاسيس من أجل تحقيق المرامي السياسية والتي يخطط ويؤسس لها أولئك المراجع والدعاة، يقول الخميني بشأن هذه الطقوس: [لا تحسبوا أن الغاية من اجتماعنا في المجالس الحسينية هو البكاء أو التباكي على الحسين سلام الله عليه فقط، فلا الإمام بحاجة إلى البكاء، ولا البكاء في حد ذاته يجدي في شيء، إنما في المجالس تجمع للناس، وهنا يكمن الهدف السياسي منها .. والمعطى السياسي هو أهم معطيات تلك التجمعات] [١].

إذن وبشكل عام يمكننا اعتبار تلك المجالس وتلك الطقوس هو الملاذ الآمن والكهف الحصين لأهل التشيع المناهضين للحكومات السُنِّية على مر التاريخ، وذلك من خلال النشاطات السرية التي تتبع تلك الطقوس والتي تعبر أصالةً على دين يناقض دين الإسلام جملة وتفصيلاً .

---

(١) ثورة عاشوراء عند الأمام الخميني ١/ ٦٤ .

إنَّ الإشكالية في تلك الطقوس هو تلك الوجوه المتعددة، وكل وجه من تلك الوجوه يستطيع إشغال الحكومات التي تسمح بتلك الطقوس والعزاءات والمجالس لسبب ما إذ إن الدول التي تجري فيها تلك الطقوس وخاصة تلك الدول السُنِّية تكون في حيص بيص وتصبح في حالة من فقدان الرشد، وذلك أنها إنْ سمحت بإجراء تلك الطقوس على أراضيها توسع القوم في تلك الأعمال مستغلين حالة الإباحة وهم يعتبرون ذلك نصراً على الدولة التي سمحت لهم بذلك، ولا يعتبرون هذه الإباحة نوع من عدالة الدولة وديمقراطيتها بل إنهم لا يكتفون بزيادة وحدة تلك الطقوس، وإنما ينتقلون إلى الخطوة الأخرى ألا وهي المطالبة والتحريض على الحكم بدعوى الحقوق والحريات العامة .

كما أن الدول التي تسمح بتلك الطقوس فإنها تصرف من طاقاتها ومقدراتها لإدراة فوضى تلك الطقوس ما الله به عليم وأي تقصير في الإحاطة بتلك الفوضى فإن المتهم بالتقصير وإحداث هذه الفوضى الدولة نفسها لا من قام بتلك الطقوس ..

فإغلاق الشوارع والأماكن العامة ومؤسسات الدولة والمصارف إضافة إلى حالات التلوث البيئي المتمثل بمخلفات تلك الأطعمة والنيران والعبث بالمرافق العامة وحالات الضجيج اللامتناهي، يتبرأ منها أصحاب تلك الطقوس، وبكل صلف، ويرمون كل تلك الآثار على الدولة التي سمحت لهم بذلك ، مع صرفها ملايين الدولارت

من أجل السماح لتلك الفوضى بالمرور .

وإن ننسَ فلا يمكن أن ننسى الأثر السيء لتلك الطقوس على الحالة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعملية والصحية في تلك الدولة التي تسمح بتلك الطقوس، فكم من أيام للدراسة قد أهدرت وعطلت لهذا السبب، وكم من المرضى منعوا من الوصول إلى المشافي بسبب تلك السرادق المنصوبة في منتصف الطريق، ولك أن تعلم بعض آثار تلك الطقوس على المستوى التعليمي في العراق من مدة الدراسة فيه؛ إذ أنها لا تتجاوز الشهر من الستة أشهر، إذ إنَّ باقي الأيام مهدورة ومعطلة بين الطقوس وبين مواليد الائمة ووفياتهم .. ولك أن تعلم أن تسعين بالمائة من مقدرات الدولة من الناحية الأمنية والمادية تصرف في تصريف تلك الطقوس والمناسبات ..

وليس لك أن تعجب وأنت في بلاد الرشيد أن الناس يحبسون داخل بيوتهم بسبب تلك الطقوس لأكثر من خمسة عشر يوماً بقليلٍ أو كثير، وفي أغلب المناسبات خاصة زيارة الأربعين ..

أما إنْ شاءت الدولة أنْ تحفظ كرامة مواطنيها بمنع إقامة تلك الطقوس فإن أصوات المطالبة بالحريات والحقوق تأتيها من كل مكان وخاصة من بلاد الغرب، ثم بعد ذلك تنشغل الدولة بدعاوى منظمات حقوق الإنسان ومنظمات المجتمع المدني، وغيرها من تلك المنظمات المشبوهة، وبهذا الفعل ينشغل رجالات الدولة المخلصين بهذا العويل والضجيج، وهم في كل حالاتهم مذمومين

مقدوحين ساقطي العدالة والضمير، ولن تخرج الدولة من تلك الدوامة المفرغة إلا بأن تكون محكمة من الداخل، وذلك بالاستعانة بجهود الخيرين والمصلحين من أبنائها .

إنَّ الداعين إلى تلك الطقوس إنما يحملون تحت أرديتهم ونفوسهم روح الثورة ضد الحكومة القائمة، وهم في ذات الوقت يدّعون أن تلك الطقوس إنما هي عبادات محضة ولا تمسّ سياسة البلد لا من قريب ولا من بعيد، وقد سألت أحدهم والطقوس بمرأى العين والبصر، ومنظر تلك الحشود الذي يشبه مسيرات تلك الضباع الضارية، والرايات تتناثر يميناً وشمالاً، وأصوات الصارخين واللاطمين تنبعث من كل مكان إلى الحد الذي لا تكاد تملك نفسك التي بين جنبيك من هول هذا الضجيج والعويل وتلك الحركة التي لا تصدر حتى من بهيمة الطريق .. فقلت له هل هذه عبادة مُنَزَّلة من رب البريات، فأجاب وهو في غاية الانزعاج: إنها مظهر من مظاهر القوة!

وقد صدق الكذوب فإن تلك المظاهر ماهي إلا مظاهرات ومقدمات لثورة قادمة تحرق الأخضر قبل اليابس، وهذه المظاهرات وإن لم تزعزع أركان الدولة، فإنها تشغلها وتشغل شعبها الذي من حقه عليها أن يحظى بملاذ آمن، وهذه الطقوس والحشود تهديد صريح وفجّ لكل سُنِّي يمر أمام تلك المسيرة، فلطالما رفعوا تلك العبارات التي تقول:[اليوم وغداً يا هند]، ويقصدون بها التهديد والوعيد لكل أهل السُنَّة والجماعة.

ولـك أن تعلـم أن هذه الطقوس أجبرت الكثير من أهل السُـنَّة في العراق إلى الانضمام إليها، خوفـًا من سـطوة أصحابها، وتلك خطوة في طريق تشييعهم.

ومهما عمل الحاكم السـني لإرضاء تلـك الطائفة، فإنه لن يجني غيـر الويل والخسـران وقـد عاصرنا تلـك الأحداث التي قـدَّم فيها صدام حسـين وخاصـة في فترة التسـيعينات – فترة الحصـار الجائر على العراق- الكثير من التنازلات، فسمح لهم بالعمل بجميع أنواع تلـك الطقوس وأنواع الزيارات والمسـيرات والاحتفالات، وقد كنا نسمع ضجيجهم وعويلهم وهو يتفاخرون ويعتبرون ذلك نصراً على الطاغية صدام حسين، لا كرمـًا منه وفضلاً وعدلاً، وكان من نتاج هذا التسـامح من ذلـك الحاكم أن كان هـؤلاء أول الثائرين عليه ومقدمة الشـامتين بموتـه وإعدامـه، ولـم يبخل دعاة أهـل السُـنَّة والجماعة بالنصح والإرشـاد لقائد العراق صدام حسـين آنذاك، وبينوا له خطر التشـيع على الدولة، وأنهـم فئة لا ترتقب في أهل السُـنَّة إلّاً ولا ذمة، فأبـى القائـد الملهم وأعتبر ذلك نوعـًا من العبـث ، وأنَّ ذلك تجاوز على حقوق الطائفة .. فكان ما كان .. وصبراً أيها الجمل .

ولقد تتابع التوظيف السياسـي لمجالس العزاء لكل الحكومات الشـيعية كالبويهييـن والصفوييـن والعبيدييـن والقاجارييـن وحتى المغـول وصولاً إلـى عصر رضا خان البهلوي وإلـى زمن الخميني، ولم تـتردد هذه الحكومات الشـيعية في توظيف أي وسـيلة من أجل

اجتثاث الحكم السُنِّي أو زعزعته، وليس هنالك أنسب من موضوع الحسين سلام الله عليه، وإقامة العزاء عليه من أجل تخدير الغليان الشيعي والسيطرة عليه وتوجيهه نحو الوجهة التي يريدونها، يقول الدكتور محسن حسام ظاهري في كتابه: مجالس العزاء ، الأدوار والوظائف الفردية والإجتماعية: [لطالما أفاد الملوك والحكام الإيرانيون من روح الحماسة الكامنة في نفوس الشيعة، إلا أنهم حولوا وجهة هذا المؤشر من مقارعة الظالم الداخلي إلى الظالم الخارجي، وكان هذا التوجيه يتم أيضاً بما هو متعارف عليه من الوسائل لدى الطرف الشيعي؛ ولهذا نقرأ في التاريخ مثلاً أنَّ الإيرانيين يقيمون مجالس العزاء ومعركة جالديران تطحن في رحالها، وكأن شيعة ذلك الزمان لا ترى ظلم الصفويين أنفسهم أو أنهم لا يسمحون برؤيته والكشف عنه، بينما يوظف مبدأ الاعتزاز بالمعتقد والتحمس له في جانب آخر وهو الوقوف بوجه الأطماع العثمانية والاوزبكية، أي مواجهة الظلم الخارجي فحسب ، وهذا ما عبَّر عنه الدكتور علي شريعتي ب – السحر الأسود – ناسباً ابتكاره للصفويين حيث يقول : [لكن الصفويين كانوا بحاجة إلى عنصر مثير للنفوس يحرك فيها الدافع المذهبي؛ لأنهم وسائر الأنظمة الأخرى لا تقتصر حاجتهم من المعتقد على التوجيه، وتقديس نظام الحكم، وإنما يسعون كي يخلقوا منه قوة ضاربة بوجه العدو الأجنبي ومجابهة المد السُنَّي، إنَّ ما أبدعت فيه الدولة الصفوية هو السيطرة على شيعة الدم والشهادة

والثورات من خلال واجهة إعلامية حملت اسم الحسين ، وبذلك امتصت ثورة الشيعة وألجمت بشهر أو شهرين من السنة هما صفر ومحرم ليظل المجتمع يلهج بعاشوراء حتى نهاية ذلك العام ... جاء هذا السحر الأسود بغرض تثبيت النظام الاجتماعي على أسس ثورية وتلبيس نظام القوة والبطش والاستبداد السياسي والاستثمار الطبقي بعناوين الإمامة والعدالة واستبدال ماهية التشيع الحمراء التي عرف بها منذ زمن الإمام علي وحتى زمن المهدي المنتظر، بالسوداء وهي عباءة الموت التي ارتداها الصفويون، وأخيراً من أجل أن يخلقوا من الولاية رصيداً وقدسية داعمة للخلافة وأداة بيد الخليفة، اتخذوا من عاشوراء مادةً تُخَدِّر الإيرانيين وتحركهم ضد العثمانيين] (مجالس العزاء الأدوار والوظائف الفردية والاجتماعية ص ٤٢١).

إنَّ المحتوى السياسي الآخر، وهي نقطة مناقشتي الثانية، إنَّ هذا الطقس الديني لا ينتهي مفعوله بانتهاء المراسيم، وبعودة الجميع إلى ديارهم، ذلك أنَّ ممارسة الطقوس الدينية تجعل الإنسان يستخدم ما استجمعه من أيام المشاركة في تلك المراسيم من خطابات دينية وتوصيات ونصائح وتوجيهات ويعيد إدخالها في حياته اليومية ما بعد انتهاء المراسيم، أي يضعها موضع التطبيق في حياته اليومية ما استلهمه خلال شهرين من تلك الممارسة، فيخرج متمسكاً بتلك التعاليم، خاضعاً لها مُتَّكلاً على شفاعة الأئمة في تحقيق أمانيه، بدلاً من التدخل الفاعل لتحسين شروط حياته، أي إنَّ تلك

الطقوس تعيد برمجة وتوجيه تفكير المسلم الشيعي، وفقاً لما تعلمه واستلهمه ، من هنا فإن التأثير السياسي لطقوس عاشوراء تكمن في إعادة برمجة وتوجيه الناس ليكونوا أكثر " شيعية" أي يتصرفوا في حياتهم الشخصية والعامة بما ينسجم وما قيل لهم من قبل الخطباء والمنشدين والمتحدثين، أي إنَّ تلك المراسيم تسهم بشكل مباشر وفعال بتشيع المجتمع.

٢- التوجيه ومواكبة الأحداث

لا شك أن الطقوس تشكل مادة جيدة في التوجية والإعلام الحربي، كما أنها تشكل أداة فذة تتصل وتواكب الأحداث، وقد يكون هذا الكلام غريبا بعض الشيء لمن لم يُخْبَر عقيدة التشيع، ولكن وبعد كل هذه الأحداث الجسام التي جرت وتجري على أمتنا، يجب أن لا يكون هنالك غريب فيما يصدر من هذه الطائفة، فالشيعي وما دام في وسط هذا البحر المتلاطم من الشعوب السُنِّية فهو عاقد على نية الحرب، وتلك النية اقتضتها تلك الروايات التي جاءت – زعموا – عن أهل البيت سلام الله عليهم، وخير أداة للتواصل ومواكبة الأحداث وتوجيه البوصلة بالشكل الصحيح والمناسب في هذه الحرب هي تلك الطقوس، وقد رأينا نماذج فاقعة لهذا التمثيل منذ سقوط بغداد ٢٠٠٣ ميلادية وحتى يومنا هذا، ففي كل حدث وكل مناسبة نجد تلك الطقوس حاضرة وبقوة وفي جميع المشاهد السياسية والعسكرية وحتى الاجتماعية منها، ومن هنا نجد أنها قد أسهمت وبشكل كبير

في نقل الصورة التي في مخيلة أولئك المراجع، الذين يخططون ويديرون تلك الحرب إلى أذهان العوام، سواء بالأساليب البيانية، أو من خلال القصص والاستعراضات المباشرة والتي تتناسب مع أفهام المخاطبين، وتُعَدُّ تلك الطقوس أحد أهم العوامل في تجديد الوعي وتوجيه تلك الحشود نحو الهدف المنشود، ولإدراك مراجع التشيع لتلك الأهمية ولتلك الخصيصة، فإنهم يسعون جاهدين لأن تكون تلك الطقوس على امتداد أكبر لأيام السنة، إذ إنها تعطي تلك الحشود دفعة كبيرة من الحماسة والتواصل، كما أنها وسيلة مهمة وفعالة من وسائل الإرشاد المذهبي والطائفي الذي ينشده المراجع، وهي كذلك وسيلة فعالة للتخدير والتذكير في آن واحد، فهي تخدر العقل وتمنعه من التفاعل مع المحيط بحسب تلك الأدوات الطبيعية ولكنها تذكره لأن يسلك طريقة الانقياد من توجيه تلك الجموع الغفيرة بواسطة العقل الجمعي، ويجتهد المراجع والدعاة وخطباء المنابر والرواديد إلى جعل جميع تلك الطقوس تحاكي الحدث الجاري وتشي بما سيجري في القادم من الأيام كما أنها تنثر بين ثنايا تلك الطقوس الكثير من الأخبار الغيبية والتوقعات الجازمة لأجل استثارة حماسة تلك الحشود وجعلهم في يقظة دائمة .

٣- حشد الجمهور

لا يمكن إغفال دور الطقوس بصورة عامة والمسير إلى قبور الأئمة بصورة خاصة في تعبئة وحشد الجمهور الشيعي نحو الغايات

التي حددتها الروايات والتي توصي بمحاربة الظلم واستئصال شأفته وإن أعظم مصداق للظلم الذي يجب محاربته هو الوجود السُنِّي في أي مكان، وهذه الحقيقة وبرغم ظهورها لكل من قرأ صفحات التاريخ، لم تعد خافية عن مسلم عاصر وكابد أحداث ومآسي العقد الأخير، إلا أننا نرى الكثير من أهل السُنَّة يتجاهل تلك الحقيقة ويعدها ضرباً من ضروب الخيال، بل يعدها أوهام ضاقت بها أحلام المتشددين من أهل السُنَّة، وتعاموا عن بحار الدم التي جرت وما زالت تجري في العراق وسوريا واليمن والبحرين، وفي كل بلد فيه مُكْنة للتشيع، وإنني وبحكم المعاشرة والمناظرة والمكابدة، وبحكم أنني كنت ممن يعتقد تلك العقيدة، ويدافع عنها إلى حد الهوس والجنون بل إلى حد الفصام النكد من النفس والضمير، أقول وبكل صدق أن الشيعي لا يرى مصداقاً للظلم إلا في ذلك الشاخص السُنِّي، وإن أبرز تجليات ذلك الظلم إنما يتمثل في ذلك الحاكم الذي ينتسب إلى أهل السُنَّة، أما بقية مظاهر الظلم في أي مكان أو أي بقعة في العالم فهي لا تعنيه بشيء، بل يتغافل ويتجاهل كل مظاهر الظلم التي تجري من طائفته بل إني رأيت الكثير من أبناء الطائفة يتناغمون، بل ويطربون لظلم الطائفة ويعدونه من تمام العدل والجزاء الذي يجب تحقيقه على الأرض السُنِّية .

إن تلك الطقوس تعد فرصة هائلة في تثبيت الهوية الشيعية في أي مكان يمكنهم التواجد فيه، بل إنهم ومن خلال ذلك المسير الطويل

لتلك المراقد المزعومة يوصلون رسالة مفادها أنَّ هوية الدولة شيعية وإن حوت الملل والطوائف المتعددة، وهذا التحشيد والتسويق لهذه الهوية يتم من خلال التركيز على محاور عدة في تلك الطقوس منها وأبرزها خطاب المظلومية، وقد برعوا في ذلك الخطاب، فهم لم يقتصروا على تلك المظلومية المحصورة في جنبات التاريخ والاكتفاء بمجرد إخراجها من ثنايا تلك الصفحات، وإنما استحدثوا الأزمات والمظالم الآنيَّة والتي تقرر من مظلومات التاريخ المأزومة وتؤكدها، فكم من عوام الشيعة قد ذهبوا ضحية التفجيرات والأزمات المفتعلة وما من سبب إلا لتقرير تلك المظلومية والتأكيد على أنه ليس هنالك من عدو للشيعة والتشيع إلا أهل السُنَّة . ولم يعد خافيا عند أهل السُنَّة في العراق بدايات ومآلات تلك المسرحية الهزلية، والتي تبدأ بسيل من دماء الشيعة ثم تنتهي بالثأر والانتقام من أهل السُنَّة وصبّ العذاب عليها صبا، تبدأ تلك المسرحية بذلك التفجير المزعوم والذي ينسب بداهة إلى أهل السُنَّة، ثم تتسلسل فصول المسرحية بتلك المشاهد المحملة بفيض الدماء والأشلاء، ومظاهر السَحْل والحرق وثقب الرؤوس بالمثاقب، إنها مسرحية تتكرر كل أسبوع وإنْ عزَّت المظالم على هؤلاء فكل شهر والشهر كثير، ثم بعد خطاب المظلومية هذا تتأكد وتتأصل أهمية ودور تلك الطقوس في إزالة وإزاحة تلك المظالم .

إنَّ إحياء تلك المناسبات من شأنه أنْ يعيد تقديم التاريخ وحتى صياغته من جديد، ففي تلك الطقوس يجري صياغة التاريخ لمعركة الطف، وكأنها مزيج لذلك الظلم المتلاحم والمتواصل من قبل أهل السُنَّة على رؤوس الشيعة، وليست هي معركة الأمس، فالذاكرة الشيعية ليست بتلك الذاكرة المثقوبة، بل هي تلك الذاكرة التي تؤسس وتؤصل وتضخ المزيد من أحجار الحقد والكراهية والتي تجعل من تلك المعركة التي لم تتجاوز زمنيا بضع ساعات أنموذجاً حيّاً لثأرٍ لن ينتهي ولو بقيام الساعة، وهي تمثل دعوة صريحة لكل شيعي بأن يجعل كل يوم على أهل السُنَّة عاشوراء، وكل أرض يتواجد فيها أهل السُنَّة كربلاء .

إن هذه الطقوس والزيارات تقوم بعملية حشد غير مسبوقة وغير منظورة في أي صفحة من صفحات التاريخ، ولك أن تعلم مقدار هذا الحشد وأنت تسمع الأطفال عندما يرون مقاتلي الحشد الشيعي وهو يصب جام غضبه وحقده على المناطق السُنِّية في العراق وسوريا واليمن وهم يرددون وبكل تعبد ممزوج بالحقد والألم والغيض: [علي وياك علي] لك أن تعلم مقدار هذا الحشد الذي تقدمه تلك الطقوس من خلال ممارسة طلاب المدارس الذين لم يبلغوا بعد سن الرشد وهم منهمكون في تنظيم تلك المواكب أو الذهاب – كمشّاية – غير مبالين بضياع مستقبلهم، لك أن تعلم أن أجيال العراق اليوم والتي تجري فيه تلك الطقوس إلى حد الهوس قد تأهلت

وتبرمجت بأنه لا يجب التخلي عن تلك الطقوس لأي سبب كان، ولو بالتخلف عن مقاعد الدراسة والعمل، لك أن تعلم أن أطفال العراق اليوم يقومون بضرب أنفسهم بالقامات وضرب الزناجيل وارتداء السواد وذلك من أجل الوصول بهم رجالا يأخذون بالثأر الذي يُرضي الحسين أو الزهراء سلام الله عليهم ..

وفي ظل هذا المناخ يجري مليًا تعبئة الشيعة بإحياء تفاصيل معارك لم تجر إلا في خيال أولئك الموهومين ومن ثم عرض ملايين القصص المفجعة والتي تتلى عند كل طقس وفوق كل منبر، ومعها سرد لأعمال القتل والذبح لأولئك الصغار والكبار، وبتلك الطقوس والقصص الموهومة تبقى الذاكرة حية، وبدون هذا الخطاب، ليس من طريق للحشد؛ لذلك فإن ممارسة هذه الطقوس يعتبر أمراً حيوياً لأولئك المراجع وهم يتأهبون وبكامل قدرتهم وعلى امتداد شهرين لإحياء تلك المراسيم، وتتجلى تلك الأهمية في إنهاك الدوائر ومؤسسات الدولة من صحة وخدمات وتعليم وأجهزة أمنية، مع عقد الاجتماعات وتخصيص القنوات الإعلامية الرسمية والأهلية لنقل أخبار تلك الطقوس والزيارات، وتحويل الجامعات والمدارس إلى أماكن لممارسة تلك الطقوس ورمي كل من تخلف عن الالتحاق بتلك الطقوس من أولئك الطلاب والمدرسين والأساتذة والكوادر الخدمية والتعليمية بتهمة التَسَنُّن ومعاداة أهل البيت، وبالتالي يكونون عرضةً للغيلة والغدر وأقلها التهجير بعد المضايقة والخوف

مـن أن تطالهـم تهمـة الإرهاب بطريقـة أو بأخـرى وبالتالـي هجرة الكفاءات وتعطيـل دروس العلم وعمل الدوائر والمؤسسـات دون أن يكون هنالك حسيب أو رقيب، والويل لكل من يناقش أو يشكك في فرضية وقدسـية وأولوية تلـك الطقوس، وكل ذلك مفروض بقوة سـلطة العـوام، إضافـة إلى سـلطة المراجـع الذين هم بين التسـليم والتعتيـم، وبين الخوف من سـلطة العوام والحـرص على المنصب والسـلطان، وكل ذلك مرتبط ارتباطًا وثيقا وصميميا بتلك الطقوس والشـعائر، وهـؤلاء المراجـع وهـم على اسـتعداد عظيم لـكل هذا التجييش ومع حيازتهم للسـلطتين الدينية والدنيوية، أو قُلْ إنْ شـئت السياسية فإنهم غير مستعدين على الإطلاق للنظر أو الاستجابة لتلك الحاجات المعيشـية واليومية كمتطلبات الصحة والتعليم ومكافحة غوائـل الفقر، بـل إنَّ الهمَّ الأوحد هـو أدلجة الشـعب برمته وإعادة صياغة وعي الشيعي ، كشيعي ومن خلال تلك الطقوس .

٤- ترسيخ الاعتقاد

ليس من السهل الغوص في أعماق ودخائل تلك الطقوس، وخاصة لأولئـك الذين لم يخالطوا أهل التشـيع ولم يكابـدوا صوره ومظاهره علـى الأرض بصورته الحقيقة، والتي تمثل حرفية تلك النصوص التي تدعـوا إلـى إقامتها كلمـا توفر المنـاخ الملائم لها، وليس من السـهل الوصـول إلـى رؤية آثارهـا على المعتقد وكشـف خفايا تلـك العلاقة الحميمية بين تلك الطقوس وتلك الروح المأزومة بالثأر والانتقام .

إن اللبنة الأولى في بيان حقيقة وآثار تلك الطقوس هو طريقة التفكير التي يفكر بها الشيعة سواء أكانوا من العامة أم من المراجع أو النخب، وقد ساهمت تفاعلات البيئة والتربية وذلك الموروث المأزوم وطرق التعليم في صناعة وبلورة وصيرورة تلك الطقوس، ومن ثم ارتداد صورها ومظاهرها على هذه العموم، وبمرور الزمن تحولت تلك الطقوس إلى حقيقة لا تقبل الجدل، وإيمان يجب الدفاع عنه بشراسة، ووصف من يشكك فيها بالزندقة والنصب أو العمالة لأصحاب الدولار، وبين الحقيقة والظن، وإيقاع تلك الطقوس تتحول الأفكار الى قيم ومشاعر متأصلة في داخل النفس يستحيل المساس بها، ومن ثم تتحول بتلك الظلامات والتراكمات إلى اعتقاد راسخ لتلك الحشود والجموع، تتشكل الصور والتعاليم والواجبات والمبادي ثم تفرز مجموعة من التقاليد والأعراف والعادات ذات الطبيعة الشعبية والتي يتم ترسيخها في القلوب والعقول بشتى المصادر والمشاهد والمواقف، ثم بعد ذلك تنشأ تلك العاطفة بين ذلك الفرد ومحتوى تلك الطقوس بما يدغدغ مشاعره ويغذي حاجاته النفسية ويزرع فيه مشاعر الحماسة والدعوة إلى الثأر والانتقام، كما يعزز ارتباطه بمطلق الأئمة الاثنى عشر لدرجة لا يدانيها أي ارتباط ولو كان بالذات الإلهية المقدسة .

إن الاعتزاز بتلك الطقوس والدعوة إليها والمثابرة في أدائها يعزز الاعتقاد بمطلق الأسطورة والخرافة التي تغيب العقل وبصورة

مطلقـة وفجَّة بمـا يدعوك إلى الاعتقاد إلى اسـتحالة تغييره، ومن ثم الثبـات عليه وإنْ ظهرت فيه كل التناقضـات، بل إنه يقابل كل الأدلة اليقينية بالتجاهل والحذف، بل إنه ينظر إليها نظرة دونية .

كمـا وتتسـم تلـك الطقوس بـكل مظاهـر الانغـلاق والتعصب والتطـرف والتلـون وهـي التي تدفـع بصاحبهـا نحو تغييـب العقل والارتماء في براثن الظلام مع الحفاظ على مراتبه ودوائره بما فيه من معتقدات لا تقبل بها ولو سارحة الإبل، تأسره وتجعل منه عبداً ضالاً منحرفًا ووحشـًا يفترس أخاه الإنسـان، وكل مـن تمرس وتمترس بتلك الطقوس وتمكن منها وتمكنت منه، كلما تمكن من إدارة فنون المعتقد وأصبح مرجعا وقدوة لمجاميع الشـر، وكلما أوغل الشيعي في تلـك الطقـوس كلمـا أوغلت نفسـه بالفسـاد والرذيلـة، وأصبح شـعار أهل البيت وحبهم مجرد شعار وجسـر يعبر فيه نحو مصالحه ومنافعه الذاتية، وهو على استعداد تام وكامل لشطب الأمانة والمثل والمبادئ وكل الأفكار السليمة من العقل والضمير، ومن ثم توصيلها إلى الأجيال المتعاقبة مشـوهة منقوصة ومحرفة تحمل في طياتها كل معاني الزيف والضلال .

إن أصـول جميـع الأديان الرئيسـية تدعـو إلى الاعتقـاد بوجود الباري وتوحيده، والتسـليم له بالخلق والأمـر، لكن نظرة عابرة إلى تلك الطقوس تعلم علم اليقين أنها تمهد لانحراف الإنسان عن ذلك الخط العريض الواضح أو تشويه معالمه أو التهجم على حقيقته ومن

ثم تفسير المعتقد بتلك الصورة المغايرة لأجل أن تورد هذا الإنسان إلى أدنى موارد الجهل والشقاء، ومن ثم تجليه بتلك النتائج التي انتقلت به من توحيد وعبادة الخالق إلى الشرك به وتقديس المخلوق وعبادته من دون الله جل وعلا.

والذي يستقرئ تاريخ التشيع استقراءً تامًا يجد أن تلك الطقوس تشكل قطب رحى المعتقدات والأساس المقدس لتلك الثقافات، وأنَّ حاجة العوام إليها حاجة أساسية وضرورية، وتتضح تلك الحاجة في أوقات الشدة والكرب، والتي تتمثل في التنفيس العميق عن تلك العقد الكامنة في النفس الشيعية بصورة عامة ومطلقة والتي ورثتها من ذلك الاعتقاد الذي بثَّه الأشياخ من أمثال زرارة وبريد وجابر الجعفي وأبان وأمثالهم من رواة ذلك الموروث الذي يعزز في النفس عقدة النقص والمظلومية، ومن ثم لا بد من الثأر والانتقام للتنفيس عن كل تلك العقد والكرب .

ويسعى مروجو وداعمو تلك الطقوس إلى ذلك الدور المزدوج لتلك الطقوس، فهم من باب يسعون ومن خلالها إلى إبعاد عوام الشيعة عن التدخل في سياسية الحاكم الشيعي وتعميق الجهل وتغييب العقل وتخديره في هذا المجال، وقد نجحوا في ذلك كل النجاح، ومن باب آخر، فقد سعوا إلى توجيه تلك الطقوس وجعلها أداة من أدوات الإنكار والخروج على الحاكم السُنِّي والتدخل في شؤون الدولة المسلمة والتحكم في سياساتها، وقد نجحوا في ذلك أيضا .

ويمكننا القول أن تلك الطقوس تعتبر من أهم الأدوات في ترسيخ المعتقد وأكثرها تأثيراً وسحراً في وجدان الطائفة ، وذلك من خلال تلك المنظومة المعقدة والمتشابكة من الشعائر والممارسات التنظيمية للأفراد والجماعات بما يشكل في النهاية أداةً للشر والعنف والإرهاب ثم صور من الحرب والخراب والدمار والاضطهاد والقتل والظلم في كل البلاد السُنِّية، وهي التي تؤصل إلى الغلو والتطرف الديني من خلال الفعل وردة الفعل ومن خلال تلك النصوص الشاذة والضعيفة، ومن ثم استسهال إراقة الدم السُنِّي بل التمرغ فيه والتنعم في منظره القانِي؛ لأجل الثواب والمنزلة المرجوة عند أئمة أهل البيت سلام الله عليهم لا عند الله جل وعلا، وكما سفَّهت العقل المسلم وقادتْه إلى كل أنواع الجريمة من خلال صناعة ودعم المشكلات والأزمات والحروب بحجة التبشير بقرب ظهور المهدي المنتظر بالمقابل فهي تؤدي ذلك الدور الخطير في تدمير الإنسان وإفساد البيئة وكافة مناحي الحياة ، كل هذه المظاهر والأمثلة تؤكد على ذلك الترابط الوثيق بين تلك الطقوس وتلك المعتقدات وقوة تأثيرها سلباً وإيجاباً على ذلك الكائن الرخو الذي تشرَّب بتلك المبادئ وانصهر فيها كسبب من أسباب الثقافة والدين لتصل في النهاية إلى ذلك القدر المحتوم الذي لا يمكنه الفكاك والخلاص من قيوده، خصوصاً تلك المعتقدات التي تصاحب أطواره وتظهر في جميع مظاهر حياته ومعاملاته وعلاقاته بالإنسان

الآخـر، ومن ثم ظهور التناقضـات والتضاربات في ذلك المعتقد بين الشـعور والسـلوك والذي يتجلى في ضعف الحجة وتهافتها وهلامية ذلك المعتقد، الأمر الذي يدعوه إلى الارتماء في أحضان الأسـطورة والخرافـة مـن أجـل التغييـر والحركـة، ومن كل مـا سـبق يظهر لنا مـدى حضور تلك الطقوس وأثرها في المعتقد بل وسـطوتها الكبيرة والعميقـة على تصرفات الفـرد والجماعة وعـدم إمكانية عزلها عن مصالحـة النوعية وبيـان وتثبيت الهوية الذاتية بمـا تصوره من أفكار وانعكاسـات وأفكار وقيم ترتسـم في خبايا النفس والروح وتشـكل جـزءاً من عالمه الفكري من أجل تحقق المـلاذ الآمن في مواجهات طوارئ الغيب المستعصية والتيارات والتقلبات الاجتماعية، وبغياب تلك الطقوس يفقد الشيعي الكثيرَ من النضج في أدوار الثأر والانتقام ويصبح كالشـجرة الجوفاء الهشـة الميتة والتي لا يمكنها الصمود في وجه الرياح والعواصف .

الفصل الثاني

طقوس عاشوراء بين الاختلاق والتحريف والإساءة لأهل البيت رضي الله عنهم

المبحث الأول

بداية الكتابة في عاشوراء بين التحريف والتوظيف

قد يكون من المناسب قبل الخوض في عمليات التحريف التي جرت على السيرة الحسينية، وقبل كل شيء القيام بمعرفة تأريخ بدء الكتابة في حادثة الطف أو حادثة كربلاء ومَنْ قام بعملية التحريف والتوظيف لتلك الحادثة، وبما أن كل حوادث التاريخ إنما تقوم على صحة السند؛ لذا فإننا بحاجة إلى إخضاع أفكارنا للنقد والمراجعة وفقاً لما يقتضيه ذلك الأصل والركن الركين، وبذلك تمتص بؤر التوتر ونقضي على منابع القلق ومناطق التوظيف المغرض، وتفعيل إيجابيات ذلك الخبر الصحيح، ومن ثم فتح المجال رحباً أمام النقد والمراجعة الصادقة، بل إني لأعتقد جازما أننا أمام فرصة تأريخية لا تزال مفتوحة وممتدة للتغيير والتجديد، ولإحداث حركة تصحيحية كبرى لأجل امتلاك قدرة وطاقة غير محدودة للتكيف من المستجدات، بدلا من افتعال الأزمات ونسج الثارات .

إن حادثة الطف لا تشكل عند أهل السُنَّة إلا حادثة من آلاف الحوادث، ولكنهم ينظرون إليها بعين الإنصاف ولا يغفلون جوانبها ومآثرها وعِبَرها الحقَّة، بل هم على أثر صاحب تلك الحادثة خلقاً ومنطقاً، وهم لا يعملون الهوى ولا يوظفون الخبر، وإنما يخضعونه ورجالاته لضوابط الجرح والتعديل وعلم الإسناد، فالفارق بين أهل

السُنَّة وغيرهم أنهم يخضعون اعتقاداتهم وتصوراتهم وإراداتهم لصحة الخبر، فالخواطر والأفكار والتصورات والإرادات والأعمال وما يترتب عليها من اعتقادات تابع لصحة الخبر، أما هؤلاء الذين شاؤوا أن يسيروا في دروب الغفلة، فهم يخضعون كل تلك الأخبار لما يعتقدون، ويلوون أعناق تلك الأخبار ليّاً لأجل أن توافق تلك المعتقدات .. لذلك فأهل السنة يستخرجون من صحيح تلك الأخبار في تلك الحادثة وغيرها العظة والعبرة من دون إفراط أو تفريط، أما الشيعة الإمامية فإن تلك الحادثة تشكل لهم إشكالية كبرى، وذلك لإهمالهم علم الإسناد، وعدم إعماله في أخبار تلك الحادثة، فتجمدوا على تصورات فكرية ودينية حُشِرَت حشراً بين متطلبات الحياة وضرورياتها، ومن ثم انعكس تمسكهم بها سلبا على واقع الأفراد اجتماعيا واقتصاديا وفكريا، ومن ثم علاقتهم بالعالم من حولهم، وهذا لعمري أمر يوجب على فقهائهم وعلى مراجعم لو كانوا صادقين البحث مليا عن مخرج ، وعادة ما يكون أنسب الحلول هو العودة إلى علم الاسناد أو علم الرجال، وإلا فإننا سنكون عرضة للفهوم الانتقائية، وكم من تراثنا من نحتاج إلى أن نتعامل معه على ضوء تلك القاعدة .

وحادثة الطفّ عند الشيعية الإمامية ليست مجرد خبر يرويه التأريخ، ويستأنس به عظة أو عبرة، وإنما هو دين وعقيدة، إن الطفّ عند الشيعة عقدة وعقيدة يوالي فيها ويعادي؛ لذلك لا يجب

التسامح أبداً في عمليات التحريف والتوظيف للأخبار من قبل أولئك المحرفين المخرفين، إننا يجب أن نستثمر هذا الحدث التأريخي العظيم من أجل أن يثمر وعياً وإدركاً سليماً وتصوراً راقياً .

وإذا كان لا بد من توظيف حادثة عاشوراء، فإنما للأعمال الجادة النافعة لا لذلك الخطاب الذي يركز على النوْح والمظلومية والذي يدعوا النفس بداهة إلى الثأر والانتقام ..

إن توظيف حادثة عاشورء وما يصاحبها من طقوس لأجل أن ينخرط الناس وينهمكوا ويذوبوا في مشاعر الحزن والغضب تاركين الأعمال الصالحة التي أمرهم الله تعالى بها، وأعمالهم الدنيوية ويظنون أنه لاجتماع بين الأمرين وأنهما على طرفي نقيض، وهذا خلاف منهج الأنبياء والرسل، فالحياة والدعوة والجهاد والعلم من سنن الحياة الرشيدة، وأن تلك العناصر تشكل وتكوِّن لكل إنسان على هذه البسيطة البحر والفضاء ، بل ميدان العلم والبناء.

كذلك وبدلاً من التحريف والتوظيف لتك الحادثة أن نتجه ببناء الوعي عن ذلك الإنسان الذي ما انفك شارداً يبحث عن السبيل؛ لذلك يجب أن يثمر هذا الحدث وعياً وإدراكا سليما وتصورا راقيا، وأن ممارسة تلك الطقوس وتوظيفها بتلك الطريقة يقتل ويغتال هذا الوعي، في الوقت الذي يجب على الأمة أن تستثمر هذا الوعي في حل مشكلاتها وقضاياها دون اجتزاء أو نقصان .

وقد سمعنا من إفرازات تلك الطقوس مالا يمكن أن يعتبر

مـن فلتات اللسـان مما يعبر عن غيظ وحنق شـديد علـى هذه الأمة المرحومة، الأمر الذي يعبر عن تلك الفعاليات السـلبية تجاه الوطن والمحيـط، وهذه هي بعض الأمور التي شـاء المحروفـون ايجادها وزراعتهـا في أرض الواقـع، وما يحصد الشـعوب والأوطان بعد كل ذلك إلا الشوك والحسك .

إن التحريفـات التي لحقت واقعة عاشـوراء اسـتهدفت الجوهر والمظهـر، وسـنرى من خلال هذا المبحث كيـف انحدرت الدوافع الدمويـة والانتقامية، وتحولت حروفا جسـدتها تلك التحريفات من خـلال الوضع والـدسّ؛ لذلك لا بد للعودة إلى تلـك المصادر التي كتبـت ابتـداءً في تلك السـيرة لأجل الكشـف عن أولئـك المحرفين المحترفين الذي قاموا بتحريف وتوظيف حادثة عاشوراء، ومن أجل ذلك لا بد لنا من التعرُّف على تلك المقاتل والمصنفات وتقسـيمها وتصنيفها أوليـًا؛ لأجل أن تتضح لنا صور التحريف وصور التوظيف لتلـك الحادثة ، ومن خلال مـا تقدم يمكننا تقسـيم المصنفات التي تناولت عاشوراء إلى ما يلي :

١- المصادر المجعولة: وهي المصادر أو المصنفات التي ليس لها عين ولا أثر، وإنما مجرد أسـماء لمسـميات، وقـد ادُّعيَ أن هذه الكتـب قد أُلِّفَـت في حادثة الطفّ خصوصـًا وأصحاب هذا الادعاء كان غرضهم من هذا تحقيق أمرين :-

الأول : إثبات أنهم أول من صنف في عاشوراء دون أهل السنة والجماعة وذلك لأجل إثبات وتحقيق أمر العداء المزعوم لسيد الشهداء الحسين بن علي سلام الله عليهما .

والثاني : إثبات التحريف والتوظيف الذي كانوا ينشدونه من تلك المصنفات المجعولة، فمن تلك المصنفات :

١- [مقتل الحسين] للأصبغ بن نباتة المجاشعي الحنظلي وهو من خاصة الإمام علي سلام الله عليه وقد توفي سنة ٦٤ هجرية، وقد قيل بعد المائة، وهذا الكتاب ليس له من عين وأثر، وإنما هو مجرد اسم لمصنف ليس إلا، فقد اعترف أهل التحقيق من الشيعة الإمامية أن هذا الكتاب لم يبق له أثر إلا بعض الرويات المتناثرة في مطاوي الكتب المتأخرة، وهذه دعوى لا دليل عليها إذ إنَّ المتأخرين نسبوا كتبا وأصولا ليس لها وجود في عصور الأئمة سلام الله عليهم كما صنعوا وانتحلوا من الروايات مالا يسع المقام لذكرها؛ لذلك فليس من الغريب أبداً أن يُدَّعى للأصبغ بن نباتة كتاباً من قبل المتقدمين ثم يأتي المتأخرون منهم فينتحلون الروايات ويصنعون الموضوعات ويدعون أنها من خلايا ذلك الكتاب .

٢- [مقتل الحسين] المنسوب لأبي مخنف لوط بن يحيى المتوفي ١٥٨ هجرية وقد قيل إنه من اصحاب الإمام الصادق سلام الله عليه، وهذا الكتاب لا أثر له كذلك في أرض المصنفات، وقد جمعت مرويات أبي مخنف والتي نقلها الطبري من قبل بعض

الباحثين المعاصرين، منهم محمد باقر المحمودي وحسن الغفاري ومحمد هادي اليوسفي الغروي ونشروه تحت عنوان: (عبرات المصطفين) وقد زعم بعض المتأخرين أن الطبري إنما نقل تلك الرويات من ذلك الكتاب المنسوب لأبي مخنف، في حين أن نظرة أولية إلى كتاب الطبري وإلى أسلوبه في نقل الرواية يكذب تلك الدعوى، وليس يخفى عند المحدثين والمؤرخين الفرق بين النقل من كتاب وجادةً وبين نقل الحديث من أفواه الرواة، ولكن أصحاب تلك الدعوى أرادوا أن يُلَبِّسوا على الناس هذه الحال؛ لأجل تمرير هذا الانتحال، كما وقد صدر في هذه الأزمان كتاب مجهول نسب إلى أبي مخنف لوط بن يحيى باسم: مقتل أبي مخنف، والانتحال والوضع ظاهران في هذا الكتاب من خلال الاختلاف الكبير والواضح بين مروياته وبين تلك المرويات التي نقلها الطبري في تاريخه، كما أن الكتاب قد حوى على بعض الروايات التي تحطّ من شخصية الإمام الحسين سلام الله عليه وتسيء إليه، كما أن الملفت للنظر في ذلك الكتاب المنحول ذلك الاختلاف الذي يفوق الحد المتعارف عليه بين المطبوع والمخطوط، يقول الريشهري صاحب الصحيح من مقتل سيد الشهداء : [ومما يؤسف له هو أن الحاجة إلى مقتل أبي مخنف أدت الى أن يتجه الكثيرون إلى هذه الطبعة المتداولة والشائعة وأن ينسبوا أكثر معلوماتها إلى أبي مخنف دون علم، جدير ذكره أن الكثير من المحدثين والمؤرخين والبليوغرفيين

في القرنين الأخيرين اعتبروا كتاب أبي مخنف المتداول فاقد القيمة وغير صالح للاعتماد][1].

وقد صرح النوري الطبرسي بزيف الكتاب المنسوب إلى أبي مخنف فقال: [من المؤسف أن أصل المقتل الذي لا إشكال في صحته مفقود ولا أثر له، والمقتل المتوفر حالياً والمنسوب له يشتمل على جملة من الموضوعات المخالفة لأصول المذهب أقحمها الأعداء والأصحاب عن جهل تحقيقاً لغايات فاسدة، ولهذا فهو ساقط عن الاعتبار ولا يمكن الاعتماد عليه ولا يطمئن الى مفرداته]. [2]

وقد زعم المحققون من الشيعة الإمامية أن أبا مخنف لوط بن يحيى متفق على ثقته وجلالة قدره بين الفريقين من أهل السنة والشيعة، ولكن لو نظرنا إلى كتب الرجال لأهل السنة لعلمنا صفاقة تلك الدعوى ومجانبتها للحق والصواب، فقد تناولت كتب الرجال السُنِّية أبا مخنف لوط بن يحيى بالرفض المطلق، ففي لسان الميزان: لوط بن يحيى أبو مخنف : إخباري تالف، لا يوثق به، تركه أبو حاتم وغيره، وقال الدارقطني : ضعيف، وقال يحيى بن معين : ليس بثقة، وقال مرة : ليس بشيء، وقال بن عدي: شيعي محترق صاحب أخبارهم، وقال أبو عبيد الآجري : سألت أبا حاتم عنه فنفض يده][3] وهكذا رجل يوصف

(١) الصحيح من سيرة مقتل سيد الشهداء ص ٢٣/ ١٤٤٤.
(٢) اللؤلؤ والمرجان للمحدث النوري الطبرسي ص ١٥٠.
(٣) لسان الميزان رقم ١٥٦٨ .

بكل تلك الأوصاف فإنه يكون مرفوض قطعاً في علم الرجال السُنِّي ولا يمكن عدَّه من المحدثين، بل إن أهل التحقيق من أهل السنة قد حمّلوا أبا مخنف مسؤولية التحريف والإساءة للتاريخ الإسلامي .

٣- [مقتل الحسين] برواية عمار بن إسحاق الدهني، والحقيقة أن هذا الكتاب لا عين له ولا أثر، وقد ذكر ابن النديم في الفهرست أن لعمار بن إسحاق الدهني كتاباً، ولكنه غير موجود ولا تعرف محتوياته تفصيلاً، نعم هنالك رويات لحادثة عاشوراء برواية عمار يرويها الطبري في تاريخه، كما أن عمار الدهني هذا ليس شيعياً إمامياً بالمعنى المتعارف عليه في هذه الأزمان المتأخرة وإنما كان تشيعه سياسياً، كما أن أغلب الرواة إنْ لم يكن أجمعهم كانوا ممن ينتسب إلى أهل السنة والجماعة، ولذلك فقد أعرض عن تلك الروايات المحققين من أهل التشيع لأجل تلك العلة .

٤- [مقتل أبي عبد الله الحسين] لجابر بن يزيد الجعفي المتوفي سنة ١٢٨ هجرية وقد قيل إنه من أصحاب الإمام الباقر والصادق سلام الله عليهما، وهذا الكتاب ليس له من أثر، وأما صاحبه المزعوم جابر الجعفي فهو من أشهر الكذابين في التاريخ، وقد كان الأحوص إذا مر بجابر هذا قال : [ربي أسألك العافية] وهو الذي أدعى أنه روى عن الباقر سبعين ألف حديث ولكن عندما سأل جعفر عن تلك الروايات وعن تلك المزاعم قال الصادق سلام الله عليه : [ما رأيته يدخل على أبي قط إلا مرة واحدة ، وما دخل علي] .

وهنالك الكثير من الأسماء لتلك الكتب المجعولة والتي ما وضعوها إلا لتلك الأغراض التي ذكرناها آنفا فمن أمثال تلك الكتب والأسماء والذي هم مجرد رواة وجدوا في أسانيد كتب أهل السنة فوجدوا فيهم نوعا من التشيع السياسي أو العقدي أو بعضاً من تلك الشخصيات المشهورة، كأن يكونوا شعراء أو أدباء أو صاحب صنعة فينسبون لهم الأحاديث والحوادث والروايات المصنوعة أو الموضوعة لأجل نشر التشيع وتكثير سواده في المصنفات والكتب، ومن ثم التأسيس لتلك الدعوة، فمن أمثال تلك الكتب: المراثي المنسوب لجعفر بن عفان الطائي المتوفي سنة ١٥٠ هجرية وهو شاعر كتب الشعر في رثاء ابن الحسين وغيره كما ذكر ذلك ابن النديم إلا أن هذا الكتاب أيضا لا أصل له، وكذلك المقتل المنسوب إلى هشام بن السائب الكلبي، فهو لا أصل له كما أن هشام هذا هو من المشهورين بالكذب، وقد حشر الآغا بزرك الطهراني في كتابه الذريعة الكثير من تلك الكتب المجعولة والتي ليس له من أثر في عالم المصنفات وصلت إلى أربعين، بل إن أولئك المحرفين والوضاعين قد حشروا بعض رجالات ومحدثي أهل السنة في هذا الوضع فقد صنفوا الكتب ونسبوها زوراً إلى كبار محدثي أهل السنة، ومثال على ذلك ما نسب إلى المحدث أبي إسحاق الأسفرائيني وهو كتاب : [نور العين في مشهد الحسين سلام الله عليه] وبالنظر إلى جميع المصادر القديمة والتي تختص بتلك المؤلفات والمصنفات لم نجحد من أثر لتلك

النسبة، وقد ذكر السيد عبد العزيز الطباطبائي أن هذا الكتاب [نور العين] مما ألحق الإسفراييني خطأ، كما أن الكتاب هذا عاري عن السند أو ذكر المصادر، كما أن رواياته جانبت العقل والمنطق والمعروف والمشهور من سيرة سيد الشهداء الحسين سلام الله عليه، كما أن تدوين هذا الكتاب كان موافقاً لسنة ١٢٩٨ هجرية، ولم تكن ثمة فترة طويلة بين تدوينه وانتشاره، إذا لا يمكن أن يكون له أي صلة بعصر الاسفرائيني الذي عاشر في نهاية القرن الرابع الهجري، ومما يؤيد ذلك تلك الهوة الكبيرة بين نص الكتاب ونصوص القرن الرابع الهجري، وقد أعرضنا عن ذكر أمثال المصادر تلك بالتفصيل والبيان لأن ذلك خارج موضوع البحث، ولكنا لم نغفل التلميح والإشارة عن بيان الدوافع والبواعث، وكذلك أسباب الانحرف في بداية تاريخ عاشوراء من خلال تلك المصنفات .

٥- مصنفات مسندة خلت من التوظيف :

هنالك الكثير من المصنفات التي كتبت في تاريخ عاشوراء بالأسانيد الصحيحة وغير الصحيحة، ولكنها قد خلت من التوظيف السياسي أو أي توظيف آخر وهذه المصنفات لم يكتبها إلا محدثو ومؤرخو أهل السنة والجماعة كالطبري وابن الاثير وابن كثير والطبراني والذهبي وأمثالهم .

١- [ترجمة الإمام الحسين ومقتله] لابن سعد صاحب الطبقات وقد قام بتحقيق الكتاب السيد عبد العزيز الطباطبائي اليزدي .

٢- [كتاب الفضائل] لإمام أهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل رحمة الله عليه .

٣- [أنساب الاشراف] لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري المتوفي سنة ٢٧٩ هجرية .

٤- [استشهاد الحسين] لمحمد بن جرير الطبري المتوفي ٣١٠ هجرية، وقد حقق الكتاب الدكتور السيد الجميلي، وهذا الكتاب مستخرج من تاريخ الطبري .

٥- [ثورة الإمام الحسين] المأخوذ من كتاب الفتوح؛ لابن الأعثم الكندي المتوفي ٣١٤هجرية .

٦- [مقتل الحسين] لسلمان بن أحمد الطبراني المتوفي ٣٦٠ هجرية، وقد استخرج هذا الكتاب من المجلد الثالث من كتاب المعجم الكبير للطبراني .

٧- [مقتل الحسين سلام الله عليه] لضياء الدين موفق بن أحمد بن محمد المكي الحنفي والمشهور بأخطب خوارزم أو الخطيب الخورزمي، وهو من علماء الأشاعرة .

٨- [ترجمة ريحانة رسول الله الإمام الشهيد الحسين] لابن عساكر أبي القاسم علي بن الحسين الشافعي الدمشقي المتوفي ٥٧١ هجرية ، وقد قام بتحقيق هذا الكتاب محمد باقر البهبودي، وهذا الكتاب مختزل من تأريخ دمشق الكامل لابن عساكر، وقد نقل فيها عن سيرة الإمام الحسين وكذلك حادثة الطفّ ما يقرب من ٤٠١ رواية .

٩- [استشهاد الحسين] للإمام الحافظ ابن كثير، وهذا الكتاب مستخرج من تاريخ ابن كثير الدمشقي المعروف بالبداية والنهاية. وقد كتب المحدثون والمؤرخون من علماء أهل السنة الكثير عن سيرة أهل البيت سلام الله عليه وخاصة في سيرة سيد الشهداء الحسين سلام الله عليه، ولكن أغلب تلك الكتابات لم تفرد في مصنف .

٦- مصنفات مسندة حوت التحريف والتوظيف معا :

وهذه المصنفات قد وضعها جمع ممن نسب إلى العلم والحديث، ولكنهم يحملون في مكنونات قلوبهم وضمائرهم الحقد على هذه الأمة، فعبَّروا عن تلك الأحقاد بتلك الروايات، والتي نسجوها في تلك المصنفات :

* [كامل الزيارات] لأبي القاسم جعفر بن محمد القمي المعروف بابن قولويه المتوفي سنة ٣٦٧ .
* [مقتل الحسين] برواية الشيخ الصدوق، وقد اشتمل هذا الكتاب على مائتي رواية قد جمعت عن طريق الصدوق .
* [مثير الأحزان] لابن نما، نجم الدين جعفر بن محمد بن جعفر، وقد وقع الاختلاف في نسبة هذا الكتاب، كما اختلف في سنة وفاته، وقد ذكر المحققون أنه توفي سنة ٦٨٠ هجرية .
* [درر السمط في خبر السبط] لأبي عبد الله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار المتوفي سنة ٦٥٨ هجرية .

* [الملهوف على قتلى الطفوف] لرضي الدين أبي القاسم على بن موسى بن جعفر المعروف بابن طاووس المتوفي سنة ٦٦٤ هجرية.

٧- المصنفات التي كرست التحريف :

لقد دوَّن في عاشوراء أو الطفّ أكثر من خمسمائة مصنف، وهي كأي واقعة تأريخية لم تسلم أحداثها من النقصان أو الزيادة عمداً أو جهلاً، ولكن الذي يتجلى في تلك المصنفات التغيرات والتحريفات المغرضة لتلك الحادثة، والإهمال التام والمتعمد لمعايير نقد النصوص والإسناد التأريخي، لذلك فإن أغلب تلك الكتب مبتلاة بالضعف وخارجة عن دائرة الاعتبار والنقل والاستناد، إذ إنها حوت الكثير من الروايات الفاقدة للأصل والسند أو أنها لا تنسجم مع تلك الشخصية الكريمة الأبيَّة، وكل هذا متأت من أن هؤلاء الكتاب الذين كتبوا في عاشوراء قد عصف بهم الهوى أو الغرض المسموم، الأمر الذي حدى بهم إلى تجنب تلك المعايير الحقة في الكتابة والتصنيف.

لقد وجدنا من خلال مراجعتنا لتلك الكتب ذلك القلم الذي يدفعه الحماس وحبه لتلك الشخصية الفذة فيندفع من غير شعور إلى التساهل، بل التعامل مع تلك الروايات العديمة الأساس، بل وصل بالبعض الغالب من هؤلاء الكتاب والمصنفين اعتماد الروايات الشفوية والتي يسمعونها دون تحقق من مصادرها من أفواه الخطباء وقراء المراثي، وليس عجبا في شريعة هؤلاء الاعتماد في التصنيف من أجل تحقيق تلك الحماسات وإظهار بعض الشعارات والدعوة

إلـى تلك الثارات، اللجوء إلـى الكتب المنحولة أو المجعولة، ومما يظهر في تلك الكتب وبشكل بارز ولافت لا يكاد يخفى على القارئ الحصيف الأسلوب الخيالي في نسج القصص، وتقديم القراءة الشيِّقة والتي تتخذ من مسامع الدهماء محوراً وقضية، ذلك أن الإنسان ينزع بفطرته إلى الحكاية والنقل الشـيِّق للأحداث، كما أنه وسيلة لإشباع ذلـك المتلقي الذي يريد تكريم أبطالـه مما يجبر النقص الذي تعانية نفسهُ وروحه، ويكبت عقده ولو حتى حين، وبالتأمل في تلك الكتب نجد تلك الخصائص المشتركة التالية :

١- إن بعـض تلـك الكتـب هي عبارة عـن محاضـرات ألقيت على المنابر وتم جمعها ومن ثم إخراجها على شكل كتاب، وهذه هي الظاهرة المطردة في أغلب كتب المجالس والمقاتل .

٢- خلـو تلـك الكتب مـن الضوابط العلميـة والمنطقية ومـا يتطلبه البحث العلمي .

٣- الأسلوب الغامض والمعقد .

٤- خلوهـا مـن الطابع العقلاني، وقلما تجد دراسـة منهجية تحليلية لحادثة الطف .

٥- دونـت الكثير من تلك الكتب تحت ظرف الحماسـة؛ لذلك فقد طغـى علـى أولئـك المصنفين مبدأ التسـامح بضوابط وشـروط الحديث تحت مسـمى التسـامح في أدلة السـنن، فتوهـم معتنقو تلك القاعدة الإباحة المطلقة في مطلق الخبر .

٦- الكثير من أولئك المصنفين انطلق من ذلك المبدأ الميكافيلي الذي يقول: [الغاية تبرر الوسيلة] فمن أجل تحقيق البكاء أو الإبكاء، فلا بأس من ذكر وتصنيف وتأليف ما يشاء من أجل تحقيق تلك الغاية .

٧- جميع تلك المصنفات والتي وضعت في عاشوراء إنما وضعت لأجل تحقيق غايتين : الاولى : الدعوة إلى الثأر والإنتقام، والثاني: إسقاط شرعية الحكومات السُنِّية وبصورة مطلقة سواء أكانت تلك الحكومات ملتزمة بمنهج أهل السنة والجماعة أم لا .

٨- الدعوة إلى الغلو والتطرف .

٩- تتصف تلك الكتب بالتناقض المطلق فمن باب تجدها تصف الأئمة سلام الله عليهم بالضعف المطلق والمسكنة التامة، ومن باب آخر تظهرهم بصورة الأبطال الأسطوريين أو الآلهة المطلقة التي لا تخرج عن تدبيرها جميع ذرات الكون، كما أنك تجد فيها تلك العاطفة الجيّاشة، وذلك الرثاء الصارخ وذلك الحنين الذي يثير الأنين وفي الجانب الآخر تجد تلك الغلظة والجفوة والقسوة العارمة والتي تدعو إلى اللعن والتكفير والشتم .

إن غرضنا من سرد هذه النقاط كشف النقاب عن مواضع التحريف والتزييف وبداية النزيف في هذا الجد الشريف، وإزالة ذلك الغبار عن تلك الآثار؛ لأجل إظهار الوجه الناصع لذلك الخروج الكريم، وإليك بعض هذا الموروث الذي حوى تلك الخصائص:

١ - [روضة الشهداء]

وهذا الكتاب أو المصنف يعتبر بحق مدرسة للتحريف، ومؤلف هـذا الكتاب هو الملا حسـين الواعظ الكاشـفي المتوفي سـنة ٩١٠ هجرية، وهو أول مقتل قد شـيعت قراءته عند الخاص والعام، وقلما يوجـد بيـت شـيعي إلا ولديه هـذا المقتل، وقـد انتقد هـذا الكتاب الكثير من الباحثين الشيعة، ونوهوا إلى ضعفه، ولأجل التعرف على تلـك العقلية الخرافية لصاحب هذا المصنف نـورد قصة واحدة من القصص والأساطير التي وردت في هذا الكتاب :

أسطورة الجارية شيرين :

اختلـق صاحب روضـة الشـهداء قصة تبـدو للرؤيا أقـرب منها للواقـع، وهـي إنما تعكس ذلـك الخيال الواسـع المحـب للخرافة والأسـطورة، كما أنها تكشـف عن تلك القدرة الكبيرة على التأليف والتزييف والسـرد والقـص وصياغة الملاحم والأسـاطير، وهذا ما يبدو جليـًا من صياغة تلك القصة والتي تدل على مهارة عالية، وهذه القصة تشـبه إلـى حد كبير تلـك القصص التي يسـردها اليـوم أكابر القصاصيـن والأدباء، تبدأ أحـداث القصة من الجبل الشـاهق الذي يقع في أطراف مدينة حلب، والذي اسـتقرت عليه قرية عامرة بأهلها يقال أنها لا تزال على تلك الحال، ويتزعم ساكنيها رجل يدعى عزيز بـن هـارون، وكان معظم أهـل القرية ورجالاتهـا يدينـون باليهودية ويمتهنـون نسـج الحرير، وقد اشـتهر نسـيجهم في كل مـن الحجاز

والعراق والشام، وصادف في تلك الأيام أن يمر طريق أسارى كربلاء من جانب هذا الجبل وعندما يصلوه ينزلون عند سفحه، حيث المياه الوفيرة والمراتع التي تملأ أطراف المكان وكان لدى شهربانو أم الإمام زين العابدين جارية في غاية الجمال تدعى شيرين، وكانت بحق شيرين عصرها وليلى زمانها، وكأنها العقيق الصافي تتدلى من فوقها ضفائر تلتوي كالتواء الحبال .

عندما جنَّ الليل جاءت شيرين إلى شهربانو فجلست عندها، وبدأت تجهش بالبكاء مما جعلها تبكي هي الأخرى وكان لشهربانو عندما جيء بها الى المدينة مائة جارية أعتقت خمسين منها عندما تشرفت بالزواج من الإمام الحسين، وأعتقت أربعين عندما ولد الإمام زين العابدين وبقي معها من الجواري عشرة فحسب وكانت شيرين الأبرز من بين العشرة بحسنها وجمالها، وفي أحد الأيام جاءت شيرين إلى بيت الإمام الحسين فوجدت الإمام جالسا وإلى جانبه زوجته شهربانو، فنظر الإمام سلام الله عليه إلى شيرين وقال متلطفا: [يا شهربانو إن لشيرين وجها مشرقا] فظنت شهربانو أن للإمام رغبة ما بشيرين فقالت يا ابن رسول الله قد وهبتها لك، فعرف الإمام بما ساورها فقال في الحال :

وأنا قد أعتقتها فنهضت شهربانو إلى صندوق ملابسها وأخرجت منه رداءاً ثميناً وألبسته شيرين، فقال لها الإمام الحسين سلام الله عليه : [لقد رأيتك تعتقين جواري كثيرة ولم أرك تلبسين إحداهن

كالذي تلبسينه شيرين] فقالت له شهربانو سيدي لقد كن عتيقاتي وشيرين عتيقتك، ولعتيقتك فضل على ما أعتقت، فدعى لها الإمام الحسين ، وقد لازمت شيرين شهربانو طيلة هذه السنوات إلى أن حل بهما المقام عند سفح هذا الجبل، وقد بكت شيرين عندما شاهدت السيدة شهربانو إذ انتقلت بها الذكريات إلى الرداء المرصع الذي ألبسته اياها بحضور الإمام الحسين، ثم طلبت من السيدة شهربانو السماح لها بالذهاب إلى القرية بغية بيع ما لديها من الزينة وابتياع بعض الألبسة التي ينسجها أهل القرية، فأجابتها شهربانو قائلة: [أنت حرة ولا حجر عليك ولك أن تذهبي إلى حيث شئت] فقامت شيرين وانطلقت إلى أعلى الجبل حتى وقفت عند باب السور الذي يحيط بالقرية وكان الليل قد ألقى بظلاله، فوجدت الباب موصداً فطرقت الباب وكان خلفها يقف عزيز بن هارون، إذ شاهد رؤيا جعلته يأتي خلف الباب منتظر فصاح على الفور: [شيرين أهذا أنت] فأجابت : [نعم] ففتح لها الباب وسلم عليها ودعاها لدار الضيافة عنده ورحب بها ترحيباً بليغا، فسألت شيرين عزيز أنى له بمعرفة اسمها فقال لها : [بينما كنت نائما رأيت موسى وهارون وقد كشفا رأسيهما وأرَّقا مهجتيهما وراحا يئنان أنين الحزين الولهان، وقد بدت عليهما بوادر المصاب، فأذهلني ذلك، فقمت وقلت لهما ياسيدا بني إسرائيل ويا مختارا الرب الجليل ، مالي أراكما على هذه الحال؟ وكأن عزيزاً لكما قد فقد، فأجاباني ألم تعلم بأن سبط نبي

آخر الزمان محمد المصطفى قد قتل مظلوما وقد حملوا رأسه وسبَوْا عياله إلى الشام وهم الليلة قد نزلوا عند سفح هذا الجبل، فسألتهما وهل تعرفان محمداً وتُقِرانِ بنبوته فأجابا وكيف لا نعرفه وهو النبي بالحق ولقد عاهدنا الله سبحانه على الإيمان برسالته ونحن له مسلمون وكل من حاد عنه فمصيره إلى جهنم، ونحن معاشر الأنبياء براء منه، فقلت دلوني بآية ليطمئن قلبي ولأكون من الموقنين، قالا قم واذهب إلى باب القلعة فإن عتيقة للحسين تدعى شيرين ستصل إلى هناك فافتح لها الباب واعتنِ بها فإنها ستصبح زوجاً لك عن قريب، فاسلم واذهب لزيارة الحسين، وقف على رأسه وأقرئه منا السلام، وتجده يرد عليك وأفقت من النوم، واتجهت فوراً إلى باب القلعة، ووجدتك تطرقينها وهكذا عرفت اسمك وبما أنهما أخبراني بأنك ستكونين زوجتي فهل ترضين بذلك فأجابته قائلة لا يكون إلا بعد إسلامك وموافقة السيدة شهربانو] .

عادت شيرين إلى شهربانو وقصت عليها ما جرى، فاندهشت السيدة وحكت هي الأخرى ما جرى لبنات الحسين وأخواته فانبهرن جميعا، وفي اليوم التالي وعندما بدأت الشمس تظهر من خلف الجبل وأخذت أشعتها تنير أرجاء القرية، بادر عزيز إلى إرشاء الشرطة بألف درهم كي يسمحوا له بالنزول عند قافلة السبايا وكان له ذلك، فأقبل حاملا لكل علوية رداءاً ثمينا وجاء إلى الإمام زين العابدين وأعطاه ألفي درهم وأسلم على يديه ثم اتجه الى رأس الحسين ووقف عنده،

وقال: [سيدي ومولاي أبلغك السلام من موسى وهارون]، فجاء الرد من رأس الحسين بصوت خافت حزين: [وعليهما السلام ورحمة الله وبركاته] فقال عزيز سيدي هل لك أن تأمرني بما لله فيه رضا، فأجابه الإمام لقد قمت بما فيه الخير والصلاح فبإسلامك قد أفرحت الله ورسوله، وبإحسانك لأهل بيتي أرضيت جدي وأبي وأخي، وبإبلاغك إياي سلام النبيين قد أرضيتني عنك ويوم القيامة يحشرك الله مع أهل بيتي، عندئذ قالت شهربانو لشيرين إن شئت أن أرضى عنك، فعليك الزواج من عزيز، فوافقت شيرين وعقدوا لها القران، وكان ذلك سبباً في إسلام جميع من كان في القرية .

وقد ترجم الملا محمد الفضولي الشاعر الأذربيجاني المشهور هذه الأسطورة إلى اللغة التركية ونظمها في أبيات شعرية وقد طبعت مرات عدة، كما وقد نظمها غيره من الشعراء، وكل شاعر يزيد عليها شيئاً حتى أصبحت قصة طويلة يحتاج إلقائها في المجالس وقتا طويلاً يزيد على الساعة والنصف، وهذه الأسطورة ليس لها عين ولا أثر في أي كتاب معتبر، ثم إنَّ زواج الإمام الحسين سلام الله عليه من شهربانو هو بحد ذاته غير ثابت، وحتى الذين أرادوا إثباته بأي شكل من الأشكال فقد اتفقوا على أن شهربانو قد توفيت وهي في النفاس بعد ولادة الإمام زين العابدين، وقد ذهب بعض أولئك المصنفين أن شهربانو هذه قد صعدت على ظهرٍ ذي جناح فحلق بها بعيداً عن كربلاء، وحطَّ فوق جبل في بلدة الري، وبعضهم من ادعى أنها قد أقدمت على الانتحار في نهر الفرات .

٢- [منتخب الطريحي]

وينسب هذا الكتاب لفخر الدين الطريحي المتوفي ١٠٨٥ هجرية، وقد صنع هذا الكتاب خصيصاً لأجل إبكاء الحاضرين، والمنتخب هذا ليس بكتاب سيرة ولا بالمقتل كما أنه ليس بالرواية، وإنما هو مجموعة نثرية وشعرية تكرس الحزن والبكاء وهو عبارة عن مجموعة من المآتم كان المؤلف يلقيها في ليالي عاشوراء ثم جمعها لاحقاً وأخرجها على شكل كتاب، وقد وجه الكثير من أهل التحقيق الانتقاد إلى هذا الكتاب وصرحوا على شموله لكثير من الموضوعات منها وأبرزها عرس القاسم بن الحسن سلام الله عليه وغير ذلك، ومع احتواء المنتخب لكثير من تلك الموضوعات إلا ان الكثير من كُتّاب السيرة قد اعتمدوا عليه في تصانيفهم، ومن الأسباب الخفية التي أغوت المصنف لسلوك التحريف والتزييف هو شهرته الواسعة، فقد اغتر بذلك وقاده هذا الغرور إلى عدم التروي في النقل وقد غفل الكثير من كتاب السِيَر عن تلك الحقيقة والتي صرحت به حروف ذلك الكتاب ولأجل تسليط الضوء على هذا التحريف نشير إلى جمل من هذا المنتخب :

١- جملة : [هل من ناصر ينصر الذرية الأطهار] .

٢- الادعاء بأن جيش ابن سعد تألف من سبعين ألف راكب .

٣- خبر الجمال .

٤- قصة الطفلة ذات الثلاث سنوات في خرابة الشام .

٥- أسطورة عرس القاسم .

٦- جملة[أسقوني شربة من الماء] وقد نسبها الطريحي إلى الإمام الحسين لأجل إثارة الوقائع وتحقيق المزيد من الحزن والبكاء، وإلا فإن العبارة لا سند لها ولا أصل، كما أنها تتنافى مع تلك الروح الأبية للإمام الحسين وتسيء إلى شخصيته وتمسخها .

٧- جملة : [جعل الحسين يقاتلهم حتى قتل ما يزيد على عشرة آلآف فارس، ولا يبين النقص فيهم لكثرتهم]

٣- [تظلم الزهراء من إهراق دماء آل العباء]

وهذا الكتاب للملا رضا القزويني المتوفي سنة ١١٣٤ هجرية، وليس له مؤلف سواه، ويُعَدُّ هذا الكتاب القمة في التزييف والتحريف، فقد حوى من التحريفات ما حوته المصنفات السابقة وزاد عليها، فالكتاب اختصار لأخبار اللهوف لابن طاووس ولكثير من أخبار البحار للمجلسي في حادثة عاشوراء وكذلك المنتخب، ومن عظيم جرأة هذا المصنف على الكذب أنه أتى بصفحات من كتابه في تظلم الزهراء سلام الله عليها، بلسان الحال مما يخالف الأخبار، ولا يتفق مع لسان المقال .

٤- [أسرار الشهادة] للفاضل الدربندي المتوفي سنة ١٢٨٦ هجرية، وهذا الكتاب ولكثرة التحريفات التي فيه، فقد عجز أهل التحقيق عن إحصائها، والدربندي هذا قد اشتهر بولعه بإقامة المآتم وإفراطه في إحياء مراسيم الذكرى لسيد الشهداء الحسين سلام الله عليه،

وقـد صرح عن غلوه وإفراطه في تلـك الطقوس في مقدمة الكتاب حيث قال : [إن الدنيا وما خلق لأجل إقامة عزاء الحسـين فيها] ويشرح هذه العبـارة في موضـع آخر من الكتاب، فيقول : [إن لله عز وجل خلق هذه الخيمة المرتفعة والسـقف المحفوظ – أي السـموات والأرض – دار الأحزان وبيت الأشـجان لأجل سيد شباب الجنان، وبعبارة أُخرى دار التعزيـة الحسـينية قبل أن يُولد وبعد أن يُولد إلى يـوم القيامة، ثم إنَّ كل مـا ترى مـن خلق الرحمن فقد خلقه أهلا وأسـبابا وأمورا متعلقة بإقامة العزاء في هذه الدار الحسينية المبنية من خيمة محفوظة وبسيطة مبسوطة ولعمـري أيها الموالون إنَّ هذا المطلق الأنيق الدقيق كان من مركوزات قلبي ولكن جرأتي وجسارتي كانت قاصرة في إظهاره].

إن هذه العبارات المتقدمة تظهر ذهنية وعقلية الرجل الموغلة في الخرافة ، وإلا فليس من المعقول أن السموات والأرض وما فيهن من خلائق، ما خلقهن إلا لأجل إقامة العزاء على سـيد الشهداء الحسين سـلام الله عليه، ولأجل تحقيق هذه الغاية وترسـيخها في أذهان عامة النـاس فقد وظف الكثير من الروايات المجعولة من أجل المزيد من الحـزن والبكاء، ولهـذا فإن التناقض بين مروياته هـو الصفة الغالبة، ولأجـل الاقتراب من حقيقة الكتاب وذهنية الرجل التي لم تعد ترى سـوى الكذب دينـاً ومنهجاً ومسـاراً مطـرداً للحياة الدنيا وسـبيلاً موصـلاً إلى العيش الرغيد في الحيـاة الأخرى، نورد بعض الكلمات لخاتمة محدثيهم النوري الطبرسي في بيان هذه الحقيقة :

[لا زلت أذكر عندما كنت في كربلاء المقدسة أحضر درس العلامة الشيخ عبد الحسين الطهراني الذي لا يوازيه في العلم والفضيلة أحد، لا زلت أذكر أنه قدم من الحلة سيد عربي يمتهن الخطابة وكان والده من مشاهير الطائفة وقد ورث عنه بعض المؤلفات فجاء بها الى سماحة الشيخ – عبد الحسين الطهراني – لغرض استبيان مدى وثاقتها وقد فقد جزءاً من أول الكتاب ويسيراً من آخره ولكن لم يغب اسم المؤلف بعد أن أدرج أسفل إحدى الصفحات أن مؤلف هذا الكتاب هو فلان من علماء جبل عامل ومن تلامذة المحقق صاحب المعالم، وقد تم التعرف على المؤلف؛ لأن اسمه ورد في التراجم لكن مالم تذكره التراجم هو تأليفه كتاب المقتل وقد عزز هذا الرأي بعد الاطلاع على جملة من فقرات هذه المجموعة التي احتوت كمًا هائلاً من الأكاذيب والأخبار الواهية التي لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تكون قد جمعت على يد عالم وبذلك نهى الشيخ – عبد الحسين – عن نشرها ولم تمر الأيام حتى علم الفاضل الدربندي بأمرها وكان مشغولا حينها بتأليف كتابه: [أسرار الشهادة] فأخذها من السيد وملأ ثنايا كتابه برواياتها الضعيفه، مما زاد في عدد الروايات الموضوعة التي احتوى عليها الكتاب].

ولأن الكذب يعري أصحابه ابتداءاً فقد اضطر أولئك المحرفون لحادثة الطفّ والتي لم تستمر إلا سويعات إلى الادعاء بأن يوم عاشوراء لم يكن كالأيام العادية من حيث المدة الزمنية، وإنما قد بلغت مدته أكثر من سبعين ساعة وذلك من أجل استيعاب الكم

الهائـل من الأحـداث والمبارزات وأعـداد القتلى والذيـن قد بلغوا الألـوف، وقـد وصف أحـد المحققين حـال هذا الكتـاب بكلمات بليغـات تكشـف عن هذا الواقـع المرير الذي ترفل به هـذه الطائفة: [ظهـر المرحـوم الملا الدربندي قبل ما يقارب السـتين أو السـبعين عامـا وجمـع كافة موضوعات كتـاب روضة الشـهداء بالإضافة إلى أمـور أخـرى في كتاب أطلـق عليه أسـرار الشـهادة، وفي الحقيقة أن مضامين هذا الكتاب تدفع المرء ليبكي على واقع الإسلام][1]

٥- [**الدمعة السـاكبة**] لمحمد باقر البهبهاني المتوفي سنة ١٢٨٥ هجريـة، وهو مـن طلبة الفاضـل الدربندي ومريديه وقـد أكثر النقل عنـه ، كما أنه لم يغفل النقل مـن بقية المصادر الأخرى والتي حوت مـن التحريف الكثير، كالبحـار، والعوالم ، وتظلم الزهراء، ومسـند البتـول، وتـذكار الحزين، والتفسـير المنسـوب إلى الإمام الحسـن العسـكري، وجامـع الأخبار ونور العيـن، ومهيج الأحـزان ومعدن البكاء ، والمصائب، إضافة إلى المقتل المنسوب إلى أبي مخنف .

٦- [**ناسـخ التواريخ**] لمحمد تقي سبهر، وهو أحد أشهر كُتّاب الدولة القاجارية والتي غلت في إظهار الطقوس والشـعائر لأغراض سياسـية ليس بيانهـا هنا في هذا الموضع، ويقع هـذا الكتاب في أربعة أجـزاء، وهو لم يسـتثنِ خـبراً أو قصة تثير قضيـة المظلومية والحزن والبكاء ولو كانت مجانبة للعقل والدين .

---

(١) انظر:الملحمة الحسينية لمرتضى مطهري ١/ ٥٥.

٧- [**معالي السبطين**] للشيخ مهدي الحائري المازندراني المولود سنة ١٣٠٠ هجرية، ولم يكتفِ المصنف بتلك المختلقات التي وردت في الكتب السابقة وإنما زاد عليها ونمّاها وكرسها لدرجة أن قارئ هذا الكتاب لم يعد يشك في تلك المصنفات المتقدمة .

ومما تقدم نستفيد أن أول مصنف كتب عن عاشوراء وبشكل مسند بعيداً عن قصد التحريف والتوضيف، إنما كان لأحد علماء أهل السنة والجماعة، ألا وهو ابن سعد صاحب الطبقات وكذلك الرواة من أهل السنة ممن عاصروا تلك الحادثة، وقد نقلت رواياتهم مؤرخي أهل السنة ومحدثيهم من أمثال الطبري، وابن الأثير، وابن كثير، وابن عساكر، والذهبي، وأحمد بن حنبل، بل إنه من النادر أن تجد مؤرخاً أو محدثاً ينتسب إلى أهل السنة لم يتناول حادثة الطفّ وسيرة أهل البيت سلام الله عليهم بقليل أو كثير بحسب ما يقتضيه المقام ، وأول من كتب عن تلك الحادثة هم أهل السنة أما الذين ادعوا وجود المصنفات وأكثروا السوادات في الكتب والصفحات مدعين أنهم أول من صنف، فهو مما لا دليل عليه، وليس هنالك شيء في الواقع الخارجي يؤيد تلك الدعوى، وقد لجأ أصحاب تلك الدعوى إلى كتب أهل السنة فاختاروا أسماء لبعض الرواة والذين كانوا يصنفون حسب علم الرجال بأن فيهم نوعاً من التشيع فنسبوا لهم المصنفات وادعوا على هذا النحو أنهم الأسبق، وأن مؤرخي ومحدثي أهل السنة إنما نقلوا من تلك المصنفات المزعومة .

المبحث الثاني

التحريف الذي لحق بسيرة أهل البيت، أنواعه، دلائله

معنى التحريف والاختلاق :

التحريف لغة هو : التغيير والإمالة ، فيقال : انحرف عن كذا ، أي مال وعدل .

وأصل التحريف في اللغة يرجع إلى الجذر – حَرَفَ – أي حرف الشيء عن مسيره واتجاهه الأساسي، وهو في الاصطلاح تغيير النص لفظاً أو معنى، وقد يتغير المعنى مع التغيير اللفظي وقد لا يتغير، والتحريف على قسمين: الأول : تحريف لفظي، والثاني : تحريف معنوي، وهو عبارة عن صرف اللفظ عن ظاهره بلا قرينة أو دليل ، ومن معاني التحريف أيضا: عدم إيصال المعنى أو المفهوم أو المراد.

أما الاختلاق فهو على وزن افتعال، وهو اسم خُصَّ به الكذب، يقال خلق الكلام إذا قدره صدقاً أو كذباً، واختلقه إذا جعله كذباً لا غير ، فلا يكون الاختلاق إلا كذباً ، كما أن الافتعال لا يكون إلا كذباً .

والاختلاق: الكذب المخترع ومنه قوله تعالى : [إنْ هذا إلا اختلاق] ، أي ما هذا إلا كذب تخترعونه اختراعا ...

وبين التحريف والاختلاق عموم وخصوص، فالافتعال صفة لازمة للاختلاق وهي ليس كذلك بالنسبة للتحريف، فقد تتوفر فيه صفة الافتعال وقد لا تتوفر.

وفي هذا المبحث نحاول جاهدين التفتيش والتنقيب عن الأسباب والعوامل التي بعثت على التحريف في السيرة الحسينية، وهي محاولة جادة لقراءة التاريخ والإجابة عن الأسئلة المبهمة كي نرتب وبشكل متسلسل، ومن ثم نكتشف العوامل التي ساعدت وأدت إلى هذا التحريف، وغرضنا من هذا البحث التوصل إلى النتائج السليمة والتي توافق النقل الصحيح والعقل الصريح، والتي يمكن من خلالها استنساخ العظات والعبر لأجل أن تستنير الطرق أمام الأجيال للتبصر وتستفيد من تجارب الماضين والأولين، وواقعة كربلاء ليست بدعاً من الوقائع، بالرغم من أن تلك الحادثة قد شكَّلت ديناً مغايراً لدين الإسلام ومناقضا له، ولخطورة هذا الأمر وفداحته بات خوض غمار هذا البحث في غاية الأهمية، إذ لا يمكن التسليم لتلك الأخبار المتضاربة من ذلك الحدث والذي شكل عند القوم عقدة وعقيدة، كما أنه لا يمكن الركون إلى التعديلات التي تماري وتماهي وتخشى من خدش تلك العاطفة الجامحة والتي تقذف بالحروف والكلمات لمجرد إظهار ولو شيئا من نور الحقيقة؛ لذا لا يمكننا الركون إلى تلك التعديلات التي لا تتفق مع السنن وطبائع الاشياء، وقيامنا بإذن الله بهذا البحث ليس مجرد عمل اعتباطي أو مزاجي، أو هو ذلك الهمّ الذي ينطلق من ذلك الفراغ والعبث، فيقوم الباحث حينها بإسقاط آرائه الشخصية أو فرض استحساناته الذاتية على مطلق البحث، فتقرر عنده ذاك الصواب والخطأ بحسب مزاج الكاتب واتجاهاته وميوله، وحينها

لا يفرق الحال بينه وبين أولئك المحرفين والمختلقين لتلك الأخبار والروايات، فكان اتباع المنهج العلمي الصارم أمراً لازماً وديناً نتدين به إلى الباري جل جلاله، فحكّمنا القواعد وأعملنا الإشارات، ولا ندعي أن كل تلك التحليلات قد توصلنا بها إلى تلك النتائج الموحدة، ولكنها تقاربت في كثير من الصور والمظاهر، وإن كان هنالك تفاوت في ذلك التقارب بقليل أو كثير ، وهذا هو شأن الكثير من البحوث العلمية والاجتماعية والانسانية والفلسفية والدينية .

وقد راج التحريف والاختلاق في تلك الحادثة، ومن ثم شكَّل لهم تلك العقيدة المأزومة بسبب ذلك الحب الجامح وغير منضبط بحدود الشرع لأهل البيت سلام الله عليهم مع الحرص الشديد من تلك النخبة المنحرفة والتي حرصت كل الحرص لإيجاد أسباب النزاع والفرقة بين فصائل هذه الأمة، والمحبة التي انطلقت من قلوب أولئك العوام إنما هي كمثل السحر الذي يقلب حقائق الأشياء، ويناقض طبائع الأمور، ويشكل التحريف صدمة عنيفة في حياة الإنسان خاصة بتلك الموضوعات التي تتعلق بمصيره في الآخرة وسعادته في الدنيا، ويسبب له ذلك الاعوجاج في مطلق مسيرته مع نفسه ومع بيئته، فالتحريف الذي يرتبط بأخلاق الناس وتربيتهم يعد من الأمور الخطيرة جداً، ولكن الذي أخطر منه هو ذلك التحريف في تلك المستندات والآثار والأسس التي تستند اليها البشرية عامة في مآلات الحياة وبصورة مطلقة .

يذكر السيد محسن الأمين في رسالته أن الغالب في تلك التعازي والطقوس الأحاديث المكذوبة الواهية ومن يروج لها يخلطون عمداً بينها وبين التسامح في العمل بالخبر الضعيف عند بعض العلماء ، فيقول : [إنا نجد قرّاء التعزية كثيراً ما يسردون على مسامع الجالسين أحاديث مكذوبة]. (١)

ويقول في موضع آخر : [هذا ولكن كثيراً من الذاكرين لمصابهم قد اختلقوا أحاديث في المصائب وغيرها لم يذكرها مؤرخ ولا مؤلف ومسخوا بعض الأحاديث الصحيحة وزادوا ونقصّوا فيها لما يرونه من تأثيرها في نفوس المستعمين الجاهلين بصحة الأخبار وسقمها إلى آخر ما ذكرناه]. (٢)

وحادثة كربلاء تشكل بالنسبة لمطلق أهل التشيع حادثة تعلقت في صميم العقيدة، وشكلت لها الأسس العامة في الخلق ، والدين ، والعادة ، والسلوك ، والتربية ، وقد دافعوا ودفعوا من أجلها وبشكل طوعي الملايين من الساعات والأموال والطاقات لإسناد تلك الحادثة التي لم تسلم كل تفصيلة من تفاصيلها من التحريف والتغيير، يقول الشيخ مرتضى مطهري [إننا وللأسف الشديد قد حرفنا حادثة عاشوراء ألف مرة ، ومرة ، أثناء عرضنا لها، ونقل وقائعها !

حرفناها لفظياً أي في الشكل والظاهر أثناء عرض أصل الحادثة،

(١) رسالة التنزيه ص ٦.

(٢) رسالة التنزيه ٩.

مقدمات الحادثة متن الحادثة والحواشي المتعلقة بالحادثة، كما تناول التحريف تفسير الحادثة وتحليلها . أي إن الحادثة مع الأسف قد تعرضت للتحريف اللفظي كما تعرضت للتحريف المعنوي . أحيانا يحصل التحريف بشكل يتناسب – نوعًا ما – مع أصل القضية وينسجم مع مقدماتها، غير أنه في أحيان أخرى يتم التحريف ليس فقط دون أي تناسب أو اتساق مع أصل القضية، بل إن التحريف ينسف أصل القضية ويمسخها تمامًا ويخرجها بشكل مضاد للأصل بالكامل][1].

ويقول أيضا: [فيما يخص واقعة عاشوراء حصل الكثير من التحريف اللفظي ودخل على الحادثة كثير من الإضافات أو النقائص التي لا تُعَدُّ ولا تحصى، فما أكثر الأصحاب والأصدقاء والأعداء والأولاد والعبارات والأعمال والأقوال التي تنسب إلى الإمام الحسين، والتي إن سمع بها الإمام نفسه، فسوف لن يتمكن من تشخيص صاحبها].[2]

وقال في موضع آخر: [إن المادة المزورة والمدسوسة كثيرة للغاية ولا يمكن حصرها بسهولة ، وإذا ما أردنا جمع كل المآتم الكاذبة فإننا ربما سنحتاج إلى عدة مجلدات ضخمة !].

ولكثرة المادة المزورة في تاريخ تلك الحادثة فقد ضاعت فيها

(١) الملحمة ١/ ١٨ :

(٢) الملحمة ٣/ ٢٨٧.

العظة والعبرة، بل إن تلك المادة بدَّدت دماء الحسين سلام الله عليه، وقد بذلها رخيصة وهي غالية عند الله وعن أمة جده محمد صلوات ربي وسلامه عليه من أجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن أجل أن يعود حكم الأمة لأمثال أولئك الأوائل من أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله تعالى عنهم أجمعين، لقد بدَّدت تلك التحريفات كل تلك الجهود له ولأصحابه الذين بذلوا الغالي والنفيس من أجل تلك القضية، بل إن العابثين من أولئك المحترفين الزنادقة إنما عبثوا قبل كل شيء بتلك الدماء الزكيّة الطاهرة وهو عين ما صرح به الشيخ مرتضى مطهري حيث يقول : [إننا يجب أن نبكي على الحسين سلام الله عليه، ولكن ليس بسبب السيوف والرماح التي استهدفت جسده الطاهر الشريف في ذلك اليوم التاريخي ، بل بسبب الأكاذيب التي أُلْصِقت بالواقعة] [١].

وقد شكا أحد علماء الهند من كثرة الأكاذيب التي يروج لها قراء التعزية الحسينية وقد رجا أحد العلماء أن يصنع شيئا من أجل منع استمرار أولئك الخطباء في الكذب والتحريف على تلك الأعواد وتلك المنابر، فيكتب ذلك العالم بسنان قلمه المنكسر بالحسرة والندم ، بأن أمر ذلك التحريف والاختلاق أعم وأشمل مما يتصوره ذلك العالم الهندي: [إن هذا العالم الهندي يتصور أن قُرّاء التعزية

(١) الملحمة الحسينية للشيخ مرتضى مطهري ١/ ١٩.

الحسينية يبدأون بنشر الأكاذيب بعد أن يصلوا إلى الهند، ولا يدري أن المياه ملوثة من رأس النبع، وأن مصدر المآتم الكاذبة هي كربلاء والنجف وإيران].

إن الطبيعة المؤمنة طبيعة مستقيمة تتحرج عن هذا التحريف والالتواء، ومن قام بتحريف حادثة عاشوراء كجزء من تاريخ وتراث الأمة هم من أهل العلم، وقد شابهوا أحبار اليهود بكل ما قاموا به من تحريفات، فهؤلاء العلماء المحترفون للزندقة كانوا على معرفة ودراية كاملة ببدايات ذلك الخروج، ولكن شاءوا عن علم لأجل الكيد والضر بهذه الأمة لتشويه وتحريف تلك الحادثة بتلك التأويلات البعيدة والتي تخرج عن الدائرة لا عن جهل بحقيقة الوضع، وإنما عن تعمد وعلم بذلك التحريف، يدفعهم بذلك الهوى وتقودهم المصلحة، ويحدوهم الغرض المريض، فليس غريبا أن ينحرفوا عن الحق الذي جاء به محمد صلوات ربي وسلامه عليه، بعد خراب ذممهم، وإصرارهم على الباطل، والمراوغة والاختلاق في الافتراء والكذب، وقد غاب عن أولئك المحترفين للتحريف، أو بالمعنى الأصح أنهم غيبوا بتلك الحقيقة النافعة لاستئناف حياة إسلامية رشيدة بإذن الله، وذلك بالتزام الصدق، ذلك أن منهج الله جل وعلا ثابت، كذلك تلك القيم والموازين، وقد يخطئ البشر فيبتعدون ويقتربون بحسب صواب العمل والنية الصالحة المبنية على قواعد التصور وقواعد السلوك الصحيح القائم على شرع الله

جـل وعـلا، ونحن إذ نقـول أن التحريفات والاختلاقـات قد ملأت السيرة الحسينية فهذا لا يعني بالضرورة أن تلك الأخطاء والتحريفات تنسب إلى الإمام الحسين سلام الله عليه، ولا حتى إلى دين الإسلام بل الواجب الكشـف عنها وعن حيثياتها وعوامل بواعثها، لا الركون أو التسليم لها، وكل ابن آدم خطاء، ولكن الانحراف غير الخطأ، فلا ينبغـي التغاضي عن ذلك الانحـراف، كذلك التنبيه على ذلك الخطأ من غير شناعة .

إننـا ونحن نتحدث عن قضية التحريف في السـيرة الحسـينية فلا ينبغي الخلط بين تبرئة الأشـخاص وتشـويه المنهـج، وأنه من الخير للأمة أن تبقي مبادئها سـليمة ناصعـة وأن وصف المخطئون بالخطأ أو المحرفون بالتحريف.

إنَّ تحريـف تلك الحادثة من الخطورة بمكان؛ لأنها أسـاءت إلى الإسـلام نفسـه، ووصفت كبار شـخصياته بعلم أو بغير علم بالخطأ والانحـراف، فلا ينبغي أن يغيب عنها بأن المنهج أكبر وأبقى من أي شخص وإنْ علت رتبته .

إنَّ الخطأ أو الانحراف لا يحسـب على الإسلام أو على تاريخه، وإنمـا يحسـب على أصحابـه، ويوصفـون حينـذاك بالوصف الذي يسـتحقونه، إننـا يجب أن نـدرك ونعلـم ونعمل على تلـك الحقيقة التي تقول: إن تاريخ الإسلام هو تاريخ التطبيق الحقيقي للإسلام في التصورات والسـلوك والاوضاع .. إذ انَّ الإسـلام محور ثابت تدور

عليه حياة الناس في إطار ثابت ومستقر ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٦٢] فإذا هم تركوا هذا الإطار فما لهم يومئذٍ ولهذا الوصف .

إنَّ ثمن التحريف لهؤلاء المحرفين قليل ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [البقرة:٤١] ولكنهم ولفساد دنياهم أرادوا أن يفسدوا على الناس أخراهم، وكل ثمن هو في حقيقته قليل، ولو كان ملك الحياة منذ أن خلقت إلى يوم فنائها، فهي لا تعدوا أن تكون رواتب ووظائف وألقابا ومصالح يباع بها دين الله ويشترى بها جهنم صدقا وعدلا .

إن الذين ترصدوا لتلك الحادثة بالتحريف وقد استهموا عليها، ليس أبشع منهم خيانة ولا أشنع منهم تفريطا بعد الاستحفاظ، وليس أخسَّ منهم بعد التدليس والتجليس لذلك المشهد الرهيب ..

ونحن إذ نتحدث عن أولئك المحرفين المحترفين لا يمكننا إغفال قاعدتهم التي يرتكزون عليها، وأولئك هم طبقة الدهماء من العامة ذات الجهل المركب ، إذ إن الوقوف بوجه هؤلاء وتعليمهم نوع من أنواع الجهاد، وهو سباحة قاسية ضد ذلك التيار المليء بالأمواج العاتية .

يذكر في هذا المجال أن أحد العلماء الكبار المتواجدين في إحدى المحافظات الإيرانية وهو من العلماء الذين يحملون بعض المعاناة والألم والحس الديني وكان على الدوام يعترض على هذه الأكاذيب والتحريفات التي تقال من فوق المنابر ، وتعبيره في هذا الصدد هو:

[ما هذه السموم التي تنفث فوق المنابر ؟] ويذكر مرتضى المطهري : أنه [جاءه مرة أحد الوعاظ يقول : أتعلم أننا لو تخلينا عن مثل هذه الحكايات لتوجب علينا إغلاق هذه الدكاكين؟! فرد عليه العالم: إنها أكاذيب يجب علينا عدم ذكرها على المنابر مهما حصل.

ومرت الأيام وشاءت الأقدار أن هذا العالم أراد مرة إقامة مجلس في مسجده الخاص، ودعا نفس ذلك الواعظ، وقال له قبل أن يرتقي المنبر بأنه يريد أن يقيم مجلسا حسينيا نموذجيا لا تذكر فيه إلا الحقائق، وأنه ينبغي على الواعظ الالتزام بهذه التعليمات وأن لا يقرأ من الأحاديث والذكر الحسيني إلا من الكتب المعتبرة،وأن يتجنب ذكر أي شيء من تلك السموم المعروفة . فاستجاب الواعظ وقال لأخينا العالم: المجلس مجلسك وأنا تحت أمرك .

وهكذا بدأ المجلس الحسيني في الليلة الأولى بحضور العالم نفسه الذي كان جالساً أمام المحراب باتجاه القبلة إلى جانب المنبر، وبدأ الواعظ بالحديث ولما انتهى به المطاف إلى قراءة التعزية الحسينية التزم فعلا بألا يقرأ إلا من الكتب المعتبرة ولا ينقل إلا الحقائق ولا يقول إلا الصدق، ولكن المجلس ظل بارداً ، ولم يهتز أبداً أي أحد من الحضور .

هنا بدأ العالم المسؤول عن تنظيم المجلس يفكر جديا بالأمر، ويقول بينه وبين نفسه بأن المجلس مجلسي، فماذا سيقول الناس عني بعد ذلك ؟ والنساء ستقول لا بد أن الرجل ليست عنده نية

صافية حتى صار مجلسه بارداً ، فلو كان الرجل ذا نية حسنة وكان مخلصا حقا في نواياه لكان مجلسه قد تحول بالفعل إلى كربلاء ! وشيئا فشيئاً بدأ يشعر أنه سيفقد ماء وجهه إذا ما استمر الموقف بهذا الشكل .

وأخيراً حسم الأمر بالتفاتة منه إلى الواعظ مشيراً إليه خفية أن يمزج أقواله ببعض تلك السموم حتى يسخن المجلس !!][1] ويعلل المطهري هذا التصرف المشين بالرغبة اللامسؤولة لأجل رؤية واقعة كربلاء بشكلها المأساوي من طرف الناس وهي الدافع الرئيس والأساس لاختلاق الأكاذيب .

من صور التحريف:

حوت كتب المقاتل والسير الكثير من الصور المُحَرَّفة والمشينة لأهل البيت سلام الله عليهم والتي ترسخ رواسب الوثنية، ولم تتشكل تلك الانحرافات في تلك الصور كلها دفعة واحدة، وإنما أُدخلت على فترات حتى انتهت إلى ما تراه من هذا الخليط من هذه الصور العجيبة من التصورات والأساطير والتي تحار فيها العقول، إن المادة المزورة والمنحولة ضخمة للغاية، ولقد أتى علامتهم مرتضى المطهري بالعديد من الشواهد على التحريف اللفظي والمعنوي الحاصل في سيرة أهل البيت سلام الله عليهم والسيرة الحسينية،

(١) انظر: الملحمة ١/ ٢١.

ولم يغفل الشيخ المطهري ذكر أسماء العلماء الذين وصفوا تلك الروايات بالتحريف والتخريف، وقد يبدو ذلك على عوام الشيعية غريباً وبعيداً عن التصديق، الأمر الذي يؤكد رضوخ واستسلام عامة العلماء والمراجع لسلطة العوام .

إن البيان أو بيان الحق الذي يسبب إثارة الجمهور وطبقة العامة أمر لا يقدم عليه إلا القليل من أهل العلم وكثير ما يتراجعون حين المواجهة أو يعطون أجوبة هلامية مهلهلة لا تظهر حقاً ولا تدفع باطلاً .. وسنكتفي هنا بسرد بعض الآثار دون الاستطراد؛ لأننا لو أردنا أن نستطرد في ذكر شواهد التحريف لم يسع ذلك عشرات المجلدات، كما شهد بذلك غير واحد من أهل العلم، وما سنعرضه تحريف ممزوج بالأسطورة والخرافة، والتي تدل على غياب العقل بصورة تدعو إلى إقامة المآتم والمراثي حقاً وصدقاً بدلاً من إقامتها على سيد شباب أهل الجنة ، الحسين سلام الله عليه:

الصورة الاولى :

هذه الصورة من صور التحريف والتزييف يرويها وينتقدها علامتهم المطهري ، فيقول: [القصة قد سمعناها مراراً وتكراراً من القرّاء، وكنا نكثر النحيب في مواضع معينة من القصة، وبعد كل تلك السنين أدرك بيت القصيد من إصرار ذلك الخطيب على تلك المواضع .. القصة تقول إن أمير المؤمنين علياً سلام الله عليه، صعد إلى المنبر؛ ليخطب في الناس، وحصل أن عطش الإمام الحسين سلام الله عليه، وطلب

ماءً، فقطع أمير المؤمنين خطبته، وطلب من الناس أن يأتوا بالماء لابنه الحسين، فكان أبو الفضل العباس، وهو طفل صغير أول من نهض ليأتي بالماء حيث ذهب إلى أمه وأحضر الماء وعاد إلى المجلس والماء فوق رأسه وقد تبللت ثيابه إلى آخر القصة بتفاصيلها المعروفة .. ولما رأى أمير المؤمنين سلام الله عليه هذا المنظر ، انسابت الدموع من خديه، ولما سئل عن البكاء ؟ أجاب عليه السلام: تذكرت كذا وكذا .. إلى آخر الخيال والتحليق المعروفة نهايته.

الحاج نوري الطبرسي هنا يناقش هذه القصة الخيالية بشكل جميل ويقول: إذا ما صدقنا جدلاً صحة هذه القصة فهذا يعني أن أمير المؤمنين سلام الله عليه كان يلقي تلك الخطبة في الكوفة، إذ إنه لم يصعد المنبر ويخطب إلا في زمان خلافته مما يعني أن ابنه الحسين سلام الله عليه كان رجلاً يناهز الثالثة والثلاثين من العمر في ذلك الوقت، فهل من المعقول والمنطقي أن يقوم رجل بذلك العمر مثل الإمام الحسين عليه السلام ليطلب الماء من أبيه وهو يخطب بالناس ويعظهم ؟!

وما لو كان مثل هذا السلوك قد صدر من شخص عادي ؟ أما كنا قد وجهنا تهمة الوقاحة وسوء الأخلاق لمثل هذا التصرف ؟ !

ثم أن أبا الفضل العباس كان قد بلغ في ذلك الوقت سن الخامسة عشرة على الأقل فأين طفولته ؟! وقس على ذلك بقية التفاصيل المختلفة جملة وتفصيلا .

فهل هذا من شأن الإمام الحسين عليه السلام ؟ !

ثم ما قيمة مثل هذه القصية المليئة بالأكاذيب ؟

وهل ترفع من شأن الإمام الحسين عليه السلام أم تخفض من شأنه ومقامه ؟

بالتأكيد أنها تخفض من مقامه ومنزلته؛ لأننا لفقنا الأكاذيب على الإمام، وسفحنا ماء وجهه وتحدثنا عنه بشكل هبط بمستواه إلى أدنى مرتبة بين بني البشر، فأب مثل علي عليه السلام مشغول بالخطابة، وابنه يعطش فلا يحتمل الانتظار حتى تنتهي الخطبة فيشرب][1]. ونحن نقول أيضا ما بال الإمام العباس يذهب إلى بيت أمه ليحضر الماء ، فهل عدم الماء من هذا المسجد ، وهل تكتمل المساجد بلا ماء يتوضئ منه الناس ويشربون ؟!

الصورة الثانية :

أما الصورة الثانية من صور التحريف، فينقلها المطهري في كتابه الملحمة، كما وينتقدها بتلك الطريقة الفريدة، فيقول: [أما النموذج الآخر للتزوير والاختلاق وهي معروفة جداً في القراءات الحسينية والمآتم، ألا وهي قصة ليلى أم علي الأكبر ، وهذه القصة لا يوجد دليل تاريخي واحد يؤكد وقوعها، نعم إن أم علي الأكبر موجودة في التاريخ واسمها ليلى بالفعل، ولكن ليس هنالك من أثر تاريخي يشير

(١) الملحمة ١/ ١٧ .

إلى حضورها لتلك المعركة ، ومع ذلك فما أكثر المآتم التي تقرأ قصة احتضان ليلى لابنها علي الأكبر في ساحة الحرب إلى آخر المشهد العاطفي الخيالي، حتى إني حضرت شخصياً في قم مجلسا حسينيا أقيم باسم آية الله البروجردي دون أن يكون هو حاضراً بالطبع، وقد سمعت في هذا المجلس أن علياً الأكبر نزل إلى ساحة الوغى وإذا الحسين يتوجه إلى أمه ليلى ويطلب منها الدخول إلى إحدى الخيم ونثر شعرها والتوجه إلى ربها بالدعاء ليرجع ابنها سالماً إليها! فإني سمعت جدي رسول الله صلى الله عليه واله وسلم يقول بأن دعاء الأم بحق ابنها مستجاب، وما أكثر الأشعار التي نظمت بحق ليلى وابنها في خيم كربلاء، فهل هنالك تحريف وتخريف أكبر من هذا .. بل قُرّاء وكتاب المقاتل لم يكتفوا بهذا التحريف فزادوا عليها [أن ليلى أم علي الأكبر عندما نثرت شعرها نذرت إلى ربها إن عاد ابنها سالماً من تلك المعركة أن تزرع الطريق من كربلاء إلى المدينة بالريحان] أي أنها ستزرع طريقا طوله أكثر من ثلاثمائة فرسح بالريحان، وينشد قاري المقتل وكاتبه :

نذر علي لئن عادوا وإن رجعوا لأزرعن طريق التفت ريحانا

يقول الشيخ المطهري : [لقد ذهلت لما سمعت وازداد عجبي من هذا البيت من الشعر العربي، وصرت أسأل نفسي من أين جاء وسط هذه التعزية ؟ !

ثم ذهبت أبحث في بطون الكتب وإذا بي أجد بأن – التفت – هي منطقة غير منطقة كربلاء، ثم إن بيت الشعر كله لا علاقة له بحادثة عاشوراء لا من قريب ولا من بعيد ، بل إنه نظم على لسان مجنون ليلى العامرية – لا ليلى أم علي الأكبر – وهو ينظر ليلاه التي كانت تقيم في هذه الناحية] .

الصورة الثالثة :

وهي قصة : [الأسد وفضة] والتي وردت في كتاب الكافي ومنتخب الطريحي وكتاب أسرار الشهادة للدربندي، والبحار ومدينة المعاجز وأغلب كتب المقاتل، وفحواها : [أن رجلاً كان يأتي [فضة] على شكل أسد في الليالي ، وملخص القصة : [أنه لما رجع الإمام علي بن أبي طالب من حرب صفين، مر بكربلاء في طريقه إلى الكوفة، ولما وصل كربلاء اعترضه أسد في الطريق وسلم على الإمام علي فقال له الإمام أنت في هذه الأرض؟ قال بلى، فقال له الإمام إذا وقعت حادثة كربلاء عليك أن تحفظ ولدي الحسين لكي لا تطأه الخيول، فلما صار يوم عاشوراء ونزل الحسين بكربلاء بعد قتله أمر ابن سعد أن يوطأ صدر الحسين وظهره، فلما سمعت النساء ما أراده ابن سعد جعلن يبكين فجاءت فضة، وقالت سيدتي هاهنا أسد أتحبين أن أذهب اليه، فقالت يا حبذا وكانت هناك غابة من قصب، فجاءت إلى تلك الغابات ونادت: يا أبا الحارث، هذا هو الحسين والقوم يريدون أن يطأوا صدره، فخرج الأسد مسرعاً وهز

برأسه وجاء إلى جسد الحسين وربض عند جثته، فأحجمت الخيل أن تدوس صدره] .

وجاء في البحار: [روي عن رجل أسدي : قال : كنت نازلاً على نهر العلقمي بعد ارتحال العسكر عسكر بني أمية، فرأيت عجائب لا أقدر أن أحكي إلا بعضها، منها : أنه إذا هبت الرياح تمر علي نفحات كنفحات المسك والعنبر، وإذا سكنت أرى نجوما تنزل من السماء إلى الأرض، وترقى من الأرض إلى السماء مثلها، وأنا منفرد مع عيالي، ولا أرى أحداً أسأله عن ذلك، وعند غروب الشمس يقبل أسد من القبلة فأولي عنه إلى منزلي، فإذا أصبحت وطلعت الشمس وذهبت من منزلي، أراه مستقبل القبلة ذاهبا، فقلت في نفسي: إن هؤلاء خوارج قد خرجوا على عبيد الله بن زياد، فأمر بقتلهم، وأرى منهم ما لم أره من سائر القتلى، فوالله هذه الليلة لا بد من المساهرة لأنظر هذا الأسد أيأكل من هذه الجثث أم لا، فلما صار عند غروب الشمس، وإذا به قد أقبل فحققته فإذا هو هائل المنظر، فارتعدت منه وخطر ببالي إن كان مراده لحوم بني آدم فهو يقصدني، وأنا أحاكي نفسي بهذا فمثلته، وهو يتخطى القتلى حتى وقف على جسد كأنه الشمس إذا طلعت، فبرك عليه، فقلت: يأكل منه؟! فإذا به يمرغ وجهه عليه وهو يهمهم ويدمدم، فقلت: الله أكبر ما هذه إلا أعجوبة، فجعلت أحرسه حتى اعتكر الظلام، وإذا بشموع معلقة ملأت الأرض، وإذا ببكاء ونحيب ولطم مفجع، فقصدت تلك الأصوات فإذا هي تحت

الأرض، ففهمت من ناع فيهم يقول: وا حسيناه، وا إماماه، فاقشعر جلدي، فقربت من الباكي وأقسمت عليه بالله وبرسوله من تكون ؟ فقال : إنا نساء من الجن، فقلت : وما شأنكن ؟ فقلن : في كل يوم وليلة هذا عزاؤنا على الحسين - عليه السلام - الذبيح العطشان . فقلت: هذا الحسين الذي يجلس عنده الأسد ؟ قلن : نعم، أتعرف هذا الأسد ؟ قلت : لا . قلن: هذا أبوه علي بن أبي طالب - عليه السلام -، فرجعت ودموعي تجري على خدي][1].

وقد اشتهرت حكاية فضة والأسد بين الناس وامتدت شرقاً إلى إيران والهند ودونتها الكتب ثم جرى توثيقها بتثبيت مسرحها مكانياً على نَشَزٍ من أرض كربلاء يقع بين ضريحي الإمام الحسين وأخيه العباس (عليهما السلام) يفترض أنه التل الذي ارتقته السيدة فضة فأقيم عليه (مقام) عرف باسم (مقام شير فضة) وهو تسمية فارسية معناها (أسد فضة) وعلقوا على واجهته صورة رسمها فنان إيراني مجهول صوّر فيها السيدة فضة تقف على تل وهي تخاطب الأسد وبقربها جثث الشهداء ممتدة مقطوعة الرؤوس وفي الطرف الأعلى من الصورة رسم جيش الأمويين يقود السبايا نحو الشام وأمامهم رؤوس الشهداء مرفوعة على الرماح.

---

(١) مدينة المعاجز - السيد هاشم البحراني - ج ٣ - ص ٧٧ - ٧٩ ، بحار الانوار للمجلسي ٤٥/ ١٩٤.

ويزور الشيعة هذا المقام وغالبيتهم من الإيرانيين والهنود يمارسون عنده طقوس العزاء من بكاء ولطم وضرب رؤوس وإنشاد أشعار.

الصورة الرابعة : عرس القاسم :

[قصة عرس القاسم والتي كما يبدو أنها من الخرافات الحديثة العهد منذ زمن السلسلة القاجارية (زمن الملا حسين الكاشفي) وخلاصتها أن الحسين سلام الله عليه كان يكنّ لابن أخيه القاسم بن الحسن حباً شديداً، وكان يروم أن يصل نفسه بأخيه الحسن ولو بشتى السبل، مما دفعه إلى أن يعقد له على إحدى بناته في خضم تلك الحادثة غير مبالٍ بأهوالها] ، وقد سئل المرجع الأكبر الخوئي عن حقيقة هذا العرس ، فأجاب : [لم يثبت لدينا القضية المذكورة، والله اعلم] [1].

ورواية (عرس القاسم) رواية مرسله تفرد بإخراجها الطريحي في كتابه المنتخب المجلد السابع من الجزء الثاني، والطريحي هذا توفي سنة ١٠٨٥ هجرية، وقد نقل هذه الرواية من الطريحي السيد هاشم البحراني المتوفي ١١٠٩ هجرية، وقد نقلها عنهما الشيخ الدربندي في أسرار الشهادة والحائري في معالي السبطين، وقد جاء في الرواية أن الإمام الحسين قد زوج القاسم بن الحسن ابنته ولم تفصح الرواية عن اسمها، ثم بعد ذلك أفرد لها خيمة، وقبل أن يبني بها خرج من

(١) موقع المشكاة للسيد هاشم الهاشمي.

خيمتـه للقتال فتعلقـت بذيل ثوبه، فقـال لها خلي ذيلي فإن عرسـنا أخرناه الى الآخرة ... الخ

وفي هذا الشأن يقول النوري الطبرسي في كتابه اللؤلؤ والمرجان :

[إن قصة عرس القاسم أو ما طرحت في منتخب الطريحي مثلاً وهو المنتخـب الذي يحوي بالمناسـبة على حكايـات واهية من قبيل قصة دفـن حضرة السـيد عبد العظيم حيـًا مثلاً ! " ويقـول أيضا : " إن قصة عرس القاسـم أول ما طرحت في أثر الكاشـفي ولم تظهر في أي كتاب آخـر قبله، وأما قصة زبيدة وشـهر بانو والقاسـم الثـاني في أرض الري وأطرافها وهي القصة المنتشـرة على ألسـنة العوام فإنها من الخيالات الواهية .. وأن علماء الأنساب كافة متفقون على أن القاسم بن الحسن لم يخلف ذرية من بعده بل أنه مات ولم يبلغ بعد]. (١)

٣- الصورة الخامسة :

وهي قصة فاطمة الصغرى أو العليلة، وبقاؤها في المدينة متخلفة عـن موكب أبيها الذاهب إلى كربلاء، بسـبب مرضهـا، ومن ثم بعد استشـهاده جاءها غراب مخضب بالدم فعلمـت أنه نعى لها والدها، وقـد روى صاحـب البحار هذه القصة، فعن الإمـام جعفر بن محمد الصادق (ع) عن أبيه عن علي بن الحسـين عليهم السلام، قال: [لمَّا قُتل الحسـين بن علـي (ع) جاء غراب فوقع في دمه ثـم تمرَّغ ثم طار

(١) اللؤلؤ والمرجان للطبرسي النوري ص ١٩٣.

فوقع بالمدينة على جدار فاطمة بنت الحسين (ع) وهي الصغرى فرفعت رأسها فنظرت إليه فبكت بكاءً شديدًا وأنشأت تقول: نعب الغرابُ فقلتُ من تنعاه ويلَّك يا غراب ..] .

وهي رواية واحدة، ورواتها مجاهيل، كما أن فاطمة هذه شخصية مزعومة لا حقيقة لها أصلا في كتب الأنساب، ومن تناقضات الرواة في وضع هذه الشخصية ونسبتها للإمام الحسين سلام الله عليه أن الكافي قد روى ما يدل على أن فاطمة هذه كانت حاضرة لواقعة الطف؛ إذ إن والدها الامام الحسين قد عهد لها بكتاب ملفوف بخرقة ، ثم عهدت به إلى الإمام زين العابدين .

وهذه نماذج من تلك القصص وصور عنها، وهي من الكثرة بحيث إنه لا يمكن إحصاؤها، وقد عجبت من ادعاء الشيخ مرتضى العسكري في كتابه – كربلاء فوق الشبهات – بأن التحريفات التي حصلت في حادثة الطف لم تتجاوز الستة مواضع، بل أنه قد لا يصل إلى ذلك، والذي يبدو مليًا أن هذا العسكري لم يدرك حقيقة قول الباري جل جلاله [وقد خاب من افترى] ولم يدرك آثار الكلمات الصادقة، وكيف أنها تنفذ في القلوب وتعمل عملها، وأن ضياع سحر الكلمات والحروف المخلصة يجعل النفس تتلجلج وتجادل مع ذاتها همسًا وخفية من أجل اجترار الباطل والتلبس فيه .

عقيدة الفداء:

ومن صور التحريف والذي تأسس من تلك الروايات المجعولة، عقيدة الفداء والتي يقول عنها المطهري في كتابه الملحمة: [لقد حرفنا كلامه عليه السلام، وقيامه مرة عندما قلنا عنه بأنه إنما قام حتى يقتل نفسه، ليكفر عن ذنوب الآخرين من أبناء الأمة، ولو سألتهم من أين جئتم بهذا الكلام ؟ هل قال الحسين مثل هذا الكلام ؟ أم هو قول النبي صلى الله عليه وآله، أو قول أحد الأئمة الأطهار ؟

يقولون لك دعك من هذا فإنه ليس مهماً معرفة مصدر هذا الكلام .

المهم أن الحسين قد قتل حتى يغفر الله لنا ذنوبنا !

ولا أدري هنا هل دخلت علينا هذه الفكرة من المسيحية أم من مصدر آخر ؟

إن أمتنا الإسلامية سواء بوعي أو بدون وعي قد أخذت الكثير من عالم المسيحية ضد الإسلام]. (١)

ويقول أيضا عن استشراء تلك العقيدة: [من جهة أُخرى فأنا لا أعرف من هو المجرم أو المجرمون الجناة الذين ارتكبوا هذه الجريمة بحق الحسين عندما حرفوا نهضة الحسين بقولهم: إن الحسين قد عرض نفسه إلى القتل ليحمل على كتفه ذنوب أمته، وهو

(١) الملحمة ١/ ٧٥ .

القول الشائع بين المسيحيين عن المسيح عليه السلام . فهل أرادوا لأنفسهم من وراء ذلك أن يرتكبوا ما استطاعوا من المحرمات دون خوف أو وجل .

وهل المذنبون قلائل حتى يزيد عددهم بهذا التحريف ؟ !

لذلك ترى أن الوجه الذي يسود معركة عاشوراء بعد هذا الانحراف هو ذلك الوجه المظلم الأسود للمعركة وصرنا لا نسمع الا الرثاء ولا نسمع إلا المصيبة حول عاشوراء][1]

***

(١) الملحمة ١/ ١١٩ .

المبحث الثالث

عوامل أو دلائل أو بواعث التحريف

إن دوافع وأسباب وبواعث التحريف والاختلاق في تأريخ البشرية كثيرة، وعادة ما يشترك في تحقيق تلك الدوافع الصاحب والعدو، وهو أمر لا يختص بواقعة عاشوراء دون سواها من الوقائع، لكن المثير في هذه الواقع أن المحرفين المحترفين قد لبسوا وتمسحوا بمسوح أهل البيت سلام الله عليهم، ووجهوا تلك الحادثة وجعلوا منها أساسا ومنطلقا في الطعن بعقيدة هذه الأمة وتراثها، وقد تمكنوا من ذلك ووصلوا إلى مراميهم، فلطالما حُرفت وبُدلت سير وحوادث التأريخ لأجل أن تتناسق وتتوائم مع ذلك التحريف الذي صاحب تلك الواقعة، وباستقراء تأريخ تلك التحريفات نجد ذلك التصميم العجيب والإصرار العظيم من أجل تحريف مسار تلك الحادثة وتضخيمها على حساب تأريخ الأمة وجعلها الأساس في التقديس لكل كتابة أو موروث ، وقد سعى أولئك المحرفون المحترفون إلى تحريف المسار الحسيني ابتداءً من الخطوة الأولى ولم يكتفوا حتى ولو بالإجهاز على النفس الأخير من خطوته الأخيرة، وإنما زادوا من الظلام حلكةً وعتمةً عندما ألزموا الأجيال اللاحقة لأن تقتفي بذلك الموروث المحرف، وكما ذكرنا أن دوافع وأسباب التحريف كثيرة خاصة في تلك التي تتعلق بحادثة الطف ، وما يزال الكثير منها فعالاً

حتى عصرنا هذا ، ونذكر هنا أهم تلك الأسباب والدوافع :

١ - حب البشر وميلهم لخلق الأسطورة وهو أمر يتكرر في كل تواريخ العالم:

ذلك أن الشيطان ينزع إلى استعباد البشر باستمالتهم إلى صناعة الأبطال وعبادتهم وتدليسهم من دون الله جل وعلا، الأمر الذي يدفعهم إلى خلق الأسطورة، ومن هذا الباب ما اختلقه المهوسون بصناعة الأساطير عن الإمام علي سلام الله عليه، حيث أنه لم يكتفوا بأنه ذلك الرجل الخارق للعادة وأنه لا جدل حول شجاعته وبطولته، بل أحاطوه بكثير من الأساطير والخرافات والتي لا تليق إلا بآلهة الإغريق واليونان والرومان، فعلى سبيل المثال قالوا إن عليا سلام الله عليه عندما اشترك في معركة خيبر ونازل مرحب الخيبري ضربه بالسيف ضربةً قسمته نصفين، فأوحى الله جل وعلا إلى الملك جبريل بالنزول إلى الأرض ووضع جناحيه تحت سيف علي سلام الله عليه، حتى يخفف من وقع الضربة ويمنع بالتالي من أن تنشق الكرة الأرضية إلى نصفين فتموت الأبقار والأسماك والحيوانات وبقية الخلائق، وقد حصل ذلك بالفعل فنزل جبريل إلى الأرض ووضع جناحيه تحت السيف ، الأمر الذي منع انشقاق الأرض لكن ضربة علي قسمت مرحب إلى نصفين متساويين تماماً ، وأنه لو وضع كل نصف في كفة ميزان لما اختلفت بشعرة، والأدهى من ذلك أن جبريل سلام الله عليه قد جرح بسبب تلك الضربة مما أدى

إلى مرضه أربعين يوماً، الأمر الذي أخر صعوده إلى السماء كل تلك المدة .. ولما صعد إلى السماء وسأله ربّهُ أين أمضيت تلك الأيام الأربعين؟ قال: ربي إنك أمرتني بالنزول تحت سيف علي وقد فعلت، ولما كنت قد جُرحت من جراء تلك الضربة فإنني كنت أداوي جراحي كل تلك المدة .

ولقد أدرك المنصفون العقلاء أن الكثير من التحريفات والتي حصلت في واقعة كربلاء سببها وجود حس الأسطورة العالى عند عوام الشيعة، وقد أثارت تلك الأساطير والمبالغات الكثير من المستشرقين ولا عجب .. فمن بعض ما نسج حول تلك الواقعة وخصوصا في كتاب مقتل الدربندي وهو مهندس الأساطير الذي برع في صناعة ووضع تلك الأساطير لدرجة تغيب العقل وتغريه، فهذا الدربندي يدعي أن جيش عمر بن سعد بن أبي وقاص في الكوفة كان يبلغ ستمائة ألف خيال، وأن المشاة يناهزون المليون شخصاً ، وحينها نقول: كم هو كبر الكوفة آنذاك وهي مدينة لم يمض على تأسيسها سوى خمس وثلاثين عاماً، وكان الهدف من تأسيسها هدفا عسكرياً بحتاً، ثم إن الكوفة وحتى يومنا هذا لم يبلغ تعداد سكانها أجمعين النصف مليون نسمة .

ومن تلك الأساطير والتي نسجت حول بطل تلك السيرة: الحسين سلام الله عليه ، إنه قَتَلَ ولوحده أكثر من ثلاثمائة ألف رجل.. حقا أنها قصة لا تناسب العقل وبالتالي فإنها تفتقد الواقعية وتنشر وتهدم من قيمتها التأريخية ..

ومـن ذلك أيضـا أنهم قالوا : [عـن أبي الفضل العبـاس بأنه قتل خمسـة وعشرين ألفـًا ، ولما حسب مقدار الوقت اللازم فيما لو كان يقتل كل ثانية رجل لكان الأمر يتطلب ست ساعات وخمسين دقيقة وبضع من الثواني][1].

ومن ذلك :

- [القـول بأن العباس قد قتل في حـرب صفين ثمانين نفراً من جيش معاوية وأنه قد قام بشقهم إلى نصفين وهم لا يزالون في الهواء وقبل أن تصل أية جثة منهم إلى الأرض ..][2].

نعم إن حسّ صناعة الأسـطورة يسـتطيع أن يفعـل أكثر من هذا ، لذ فإنه لا يجوز لنا ولا لأهل العقل تسـليم هذا الموروث إلى صنّاع الأساطير والخرافة .

٢- عقدة المظلومية الزائدة :

المظلومية هي عقدة متأصلة عند عامة الشيعة، يُظهرون من خلالها أصالة قضيتهم وإسـقاط شـرعية مخالفيهم من أهل السُـنَّة والجماعة، فليس البكاء والحزن وأنواع تلك الطقوس من لطم ولدم ووضع الأقفال على الأجساد والمشي على النار وتطبير الرؤوس وإيقاد الشموع وغير ذلـك إلا إظهار لتلـك المظلومية؛ ليؤكدوا فيها تلك المحاور السـابقة التي أشـرنا إليها آنفا، لقد كانت وما زالت تلك الطقوس سـلاحـًا آمنـًا

(١) الملحمة ١/ ٢٢.

(٢) ٣/ ٢٨٠ .

وماضياً يستخدمونه لذم الحكام من أهل السُنَّة وإسقاط شرعيتهم، وقد شكَّلت عقدة الاضطهاد عاملا مهما من عوامل التحريف، ذلك أنهم يعتقدون أن الاعتدال والإنصاف وملازمة أسباب الرشد في النقل ورصف العقل، يجعل من قضيتهم يطويها ركام النسيان وتغيب في ثنايا ذلك البحر المتلاطم من الأخبار والأسفار، فكان لزاماً من سلوك طريق التحريف والاختلاق لإشغال الناس من الموالي والخصوم في تلك المخاريق والأخبار، ومن ثم تكون تلك التحريفات سياجاً حصيناً آمناً للمذهب وأصوله المتوارثة .

إن عقدة المظلومية التي يعيشها عامة الشيعية تجعلهم قلقين إلى حد الهوس من نسيان عاشوراء وتلاشيه من وعي الناس، فهم يعتقدون أن الكثير من العقائد والأصول ـ والتي يدينون بها في هذه الأزمان المتأخرة وليس لها من أثر في العصور الأولى ـ موجودة ولها الأساس القويم والعظيم من التقديس إلا أنها طُمرت بفعل ذلك الإعلام الكبير من المخالفين لمدرسة أهل البيت سلام الله عليهم، ابتداء من مدرسة الخلفاء إلى بني أمية إلى بني العباس إلى بني عثمان امتداداً إلى كل حكام البلاد السُنِّية في العصر الحديث.

٣ - التغاضي عن النظر في أسانيد الأخبار .

الدين كله إنما يقوم على الخبر، ولا عبرة بالخبر إلا بالسند الصحيح، ولذلك قال من قال من السلف : [إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم] .

والشيعة ليس لهم في علم الإسناد شيء ، ولم يصنفوا فيه إلا بعد الشهيد الثاني الحسن زين الدين الجعبي العاملي المتوفي ٩٦٥ هجرية، وقد اعترف بتلك الحقيقة المرة شيخهم الحائري حيث يقول : [ومن المعلومات التي لا يشك فيها أحد أنه لم يصنف في دراية الحديث من علمائنا قبل الشهيد الثاني][١].

بل إنهم ما وضعوا علم الإسناد إلا تقليداً لأهل السنة، ودفعا لتعييرهم، وهذه حقيقة اعترف بها محدثهم الشهير الحر العاملي، حيث قال : [والذي لم يعلم ذلك منه ، يعلم أنه طريق إلى رواية أصل الثقة الذي نقل الحديث منه ، والفائدة في ذكره مجرد التبرك باتصال سلسلة المخاطبة اللسانية ، ودفع تعيير العامة – أي أهل السنة – الشيعة بأن أحاديثهم غير معنعنة ، بل منقولة من أصول قدمائهم][٢].

بل إن علماء الطائفة معترفون ومقرون بأن علم الإسناد علم مستحدث في زمن العلامة، يقول الحر العاملي: [إن هذا الاصطلاح مستحدث في زمن العلامة أو شيخه أحمد بن طاووس كما هو معلوم][٣] بل إن الحر العاملي قد اعترف بحقيقة من أكثر الحقائق مرارة ألا وهي أن علم الاسناد مأخوذ برمته من أهل السنة، وقد كُتِبَ تقليداً لهم فقال : [طريقة المتقدمين مباينة لطريقة العامة، والاصطلاح

(١) مقتبس الأثر ٣/ ٧٣.
(٢) وسائل الشيعة ٣٠/ ٢٥٨.
(٣) وسائل الشيعة ٣٠ / ٢٦٢.

الجديد موافق لاعتقاد العامة واصطلاحهم، بل هو مأخوذ من كتبهم كما هو ظاهر بالتتبع، وكما يفهم من كلامهم الشيخ وغيره][1].

والعمل بعلم الإسناد يوجب ذبح التراث المنسوب إلى أئمة أهل البيت والذي تبنى روايته زرارة وبريد وجابر وأبان وأضرابهم من الوريد إلى الوريد كما اعترف بذلك عبد الحليم الغزي في أحد برامجه، ثم أن الأئمة على حد زعم أولئك الرواة مأمورون بتجنب طريقة أهل السنة كما جاء على لسان الحر العاملي [وقد أَمَرَنا الأئمة عليهم السلام باجتناب طريقة العامة)[2].

واعترف بأن الأخذ بعلم الإسناد يستلزم تخطئة الطائفة [الاصطلاح الجديد يستلزم تخطئة جميع الطائفة المحقة في زمن الأئمة عليهم السلام، وفي زمن الغيبة كما ذكره المحقق في أصوله]. [3]

بل إن شيخ الطائفة الطوسي قد اعترف بحقيقة غاية في البشاعة وهي [إن كثيرا من مصنفي أصحابنا وأصحاب الأصول ينتحلون المذاهب الفاسدة وإن كانت كتبهم معتمدة][4]

لذلك فهم مضطرون إما إلى الأخذ بهذا الموروث المضطرب أو تحصيل ديناً غير دين الإمامية ، يقول يوسف البحراني المتوفي

(١) وسائل الشيعة (٣٠/ ٢٥٩).
(٢) وسائل الشيعة (٣٠/ ٢٥٩).
(٣) وسائل الشيعة (٣٠/ ٢٥٩).
(٤) الفهرست ٢٥.

١١٨٦ : [الواجب إما الأخذ بهذه الأخبار، كما هو عليه متقدموا علمائنا الأبرار، أو تحصيل دين غير هذا الدين، وشريعة أخرى غير هذه الشريعة][1]

لذلك فإنه ليس عند عامة أهل التشيع ضابط لتمييز الأصيل من الدخيل، وإن دينا خالٍ من الإسناد ما هو إلا كمثل خيمة مشرعة الأبواب، يدخلها ويردها كل من هبَّ ودبّ، إنه من المؤسف حقاً أن لا تعمل قواعد الإسناد في دين يعتنقه الملايين وينسبونه إلى الإمام المعصوم، مع أن العصمة هذه وإن وجدت فإنه لا قيمة لها بعد كل تلك السنين وخلو الأرض اليوم من المعصوم، فلذلك ليس غريباً أن نجد تلك الأساطير والموضوعات مُنَزَّلة في مواضيع حساسة ـ كعاشوراء الحسين سلام الله عليه ـ تنزيل المسلمات، فإذا ما علمنا .. ويعلم ذلك جميع الشيعة في العالم ، بأن دائرة التقويم الرئيسية للتشيع إنما ترتكز على تلك المرحلة وعلى مسألة عاشوراء بالذات، وبالتالي فإن أي عمل يقوم به الشيعة ، معقول أو غير معقول ، فإنه يؤدي بالسخرية والاستهزاء بهذا اليوم العظيم ؟ !

والأكثر إيلاما في هذا الأمر أن إهمال الإسناد وعدم العمل به في تصنيف الأخبار يحيل التراث الشيعي برمته من كونه فكراً وعقيدةً إلى فاجعة عريضة، ويمكننا ملاحظة غياب علم الإسناد أو تغييبه

(١) لؤلؤة البحرين ص ٤٦.

أو العمل به شكلاً وتركه موضوعاً في أكثر الكتب والتي صنفت في عاشوراء وفي غيرها مرتعا خصباً لكل الأساطير والخرافات ..

٤- التحريف من أجل الغاية .

الغاية تبرر الوسيلة ، هذا المبدأ الميكيافيلي الخطير هو بالحقيقة يمثل أخطر عوامل التحريف وأكثرها مدعاة للأسف، فليس هنا من مدعاة للنظر لصواب الوسيلة، إذ لا بأس بتحريف الحقائق وتحوير الوقائع لأجل الوصول إلى الهدف الصحيح المعلن، وبالنظر إلى تلك الأخبار المجعولة وتلك القصص الخيالية، وسماع بعض اعترافات أصحاب المنابر ندرك حينها عمق الفاجعة، ولو وقفنا على سواحل بحور تلك المقاتل لجرفتنا سيول تلك التحريفات، والتي شُيِّدت على أساس ذلك المبنى المفجع: [الوسيلة فداء للهدف] .

واستمع إن شئت لتعليل الملا مهدي النراقي في نقل الأخبار الضعيفة وغير المعتبرة في سيرة أهل البيت سلام الله عليهم؛ لتدرك عظم الفاجعة: [إن نقل الأخبار الضعيفة وغير المعتبرة في حكايات النبي والوقائع التي جرت مع أهل البيت .. جائز ، وكلما دل خبر ضعيف على أن البكاء على الإمام الحسين له كذا وكذا ثواب ، وسمعه شخص ما ، وبكى بنية الوصول إلى هذا الثواب ونيله ، فسيكرمه الله به .. من هنا ذكرنا في هذا الكتاب الأخبار الضعيفة إلى جانب الصحيحة][1]

(١) محرق القلوب للنراقي ٣/ ٢ .

إن تحرير الأصول والثوابت وتنقيتها مما قد يشوبها أمر جوهري، وهو الأساس في سلامة الدين وحسن التوجة إلى الباري جل جلاله؛ لذلك يجب عرض كل وسيلة من الوسائل على القواعد والأصول الشرعية حمايةً من الانحراف والتحريف تحت ضغط الواقع وحجية الغاية الموهومة، وإن حرصنا على إظهار السيرة الحسينية ومحبتنا لها لا يجب أن يخرجنا عن الالتزام بالمنهج الشرعي.

٥- السعي من أجل إبكاء الجمهور

تختزل السيرة الحسينية في أغلب المشاهد أو الظواهر بالبكاء والعويل، وتوظف من أجل تلك الغاية الأخبار الصحيحة والضعيفة والموضوعة على حد سواء، والمنهج المُطَّرد عند قراء العزاء والمداحين والدعاة والروايد هو الضرب على أكثر الأخبار إحراقا للقلوب وإدراراً للدموع، من قصص وخيالات، وهم لا يتورعون عن الكذب والافتراء من أجل تلك الغاية، فيصنعون من تلك الجمل التي لا تزيد على بضع كلمات قصة طويلة تمتد لعشرات الصفحات، ويقوم هؤلاء بهذا العمل وقد تركوا شناعته خلف ظهورهم وانطلقوا من تلك الحقيقة التي تؤكد أن الإضحاك والإبكاء من أشد حالات الإنسان حساسية، ومن تمكن من إضحاك الناس وإبكائهم يكون قد امتلك قلوبهم، وبالتالي التحكم والسيطرة على عواطفهم ومن ثم توجيهها إلى الهدف المنشود.

إن عمليـة الإبكاء والتباكي عملية قيصرية بمشـاريط العاطفة من أجل إفراغ العقل وتخديره، وهي ليست بتلك العملية السطحية التي يظنهـا الكثير من النـاس .. إنها تصفير للعقل ومـن ثم برمجته لأجل أن يقـود الجسـد كله نحـو إرادة المجمـوع، فعملية البكاء، تسـلب خصوصية العقل وتلغي مَلَكَة التفكير ولا تسمح إلا بالفكر أو العقل الجمعي .

إن الشـيعي حينمـا يـأتي إلـى أي مجلس مـن مجالـس العزاء – الحسـيني – فإنه يهيء نفسـه سـلفـاً للبكاء والتباكـي، وهذا الإعداد وتلـك التهيئة بين يدي قـارئ العزاء تجعل منه كقطعـة القماش بين يدي الخياط، بل كجسـد ذلك الميت المنطرح بين يدي مغسله يقلبه كيف يشاء .

وعملية البكاء عملية عفوية لا تخضع للاسـتفعال وإلا أصبحت نفاقـًا، ولكن البكاء في العزاء الحسيني يخضع تماما لذلك الاستفعال، ولكنه لا يُعَدُّ نفاقـًا، وإنما يُعَدُّ تفاعلاً وتلبسـًا بحوادث التأريخ الغابر، فهـو بتلك العمليـة يسـتدعي كل دوعي الحزن في نفسـه، وفي عموم محيطه، وكل ما تجده نفسـه مـن آثار وعوامل الحزن فيسـتحضرها جميعا لتشـكل عنده كل صـور المظلومية على نفسـه وعلى محيطة وعلـى محبيه، ثـم بعد ذلك يفـرز كل لآثـار الثأر والانتقـام بعد أن تتحقق فيه صور الولاء والبراء .

وبعبـارة أُخرى فإنَّ الشـيعي لا يبكي حين يبكـي لمجرد البكاء،

وإنما للوصول إلى حالات الولاء والبراء ومن ثم إيقاع الثأر والانتقام على محيطه، ومع حرص الشيعي على تحقيق تلك الآثار إلا أنه لم ينسَ ولن ينسى تلك الأحاديث التي وعدت بثواب البكائين على الإمام الحسين سلام الله عليه، بل إن ذلك الحرص هو الخطوة الأولى لتحقيق تلك الآثار والمقدمات ..

إننا لو فتشنا في كتب الأولين والآخرين ومن جميع الأديان لن نجد نصاً واحداً يثبت فيه ثواباً للبكاء ما خلا نحلة التشيع، ذلك أن الاستسلام لتلك العملية وبتلك الصورة عملية كبرى لإغلاق دُكّان العقل .. مرة واحدة .. وإلى الأبد .

إن تهيؤ الباكي بهذه الصورة الفجَّة لعملية البكاء تعني بالضرورة أن يكون العقل مجرد صفحة بيضاء جاهزة للكتابة فيها من قبل أولئك الدعاة والرواديد، فمن خلال تلك العملية يمكن أن يكون الشيعي كأي مادة في الكون يسهل تشكلها بأيدي هؤلاء الملالي .

إنَّ هذا الاستغفال لم يحدث في تأريخ البشرية وبتلك الصورة الفجَّة؛ ليجعل ثُلُثَي عمر الإنسان موروثا من الحزن يتجدد في كل حين ولحظة إلا في هذه النحلة، وليس من غاية لاجترار هذا الحزن إلا تلك الغاية التي ذكرناها آنفا، ولقد بين مرتضى مطهري بأن عملية الإبكاء ليست بتلك العملية الاعتباطية أو أنها خالية من التنظيم والترتيب، أو أنها خالية من الهدف، بل فيها كل ذلك، ووجَّه سهام النقد اللاذعة إلى أصحاب هذا التصور.

إن تسابق العوام من الشيعة على البكاء والتباكي تحت المنبر يدفع الخطيب أو الداعية إلى الجرأة على الله تعالى وعلى رسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى أئمة اهل البيت سلام الله عليهم، فيفتري الأحاديث والروايات من بين يديه ومن خلفه .. يقول محمد اسفنديارى في كتابه (عاشوراء الحسين وعاشوراء الشيعة) مانصه: [ثمة عامل آخر ساعد على انتشار الخرافة في نصوص عاشوراء وهو سعي البعض لإبكاء الجمهور أيًا كانت وسيلته، معتبرين البكاء غايتهم القصوى من فلسفة عاشوراء، وقد اختزلوا فكر الحسين وثورته في الدمع والنحيب متجاهلين في السياق ذاته كل شيء خارج عن ذلك ، بوصف البكاء هدفًا أوحدَ للقضية، وإذا تأطرت عاشوراء بهذا الهدف وحده، فمن الطبيعي أن يعمد أولئك النعاة إلى الزيادة في مأساوية كربلاء بنقفِ الحنظل والفلفل طلبًا لكمية أكبر من الدمع الهاطل .

لقد تحولت عاشوراء عند بعضهم إلى رواية مفعمة بالدراما، تحيطها جملة من العناصر المساعدة على إبدائها في أشجى صورة تستفز الدموع] ٤٠٦ .

وبحكم التجربة فقد وجدنا من استسلام عامة الشيعة وتدينهم بالبكاء استسلام لعملية التنظير التي يقوم بها الخطيب، والتي يصنع من خلالها تلك الملحمة حيث الأشلاء والدماء والنار والثأر، ثم يقحمه فيها بطواعية منقطعة النظير .

٦- المبالغة والغلو في وصف الأئمة سلام الله عليهم :

الغلـو هو الإفـراط وتجاوز الحـد في الأمر، وهـو في الاصطلاح تجاوز حد الوحي المنزل، إلى هوى النفس، وفي هذا الباب فإن الغلو هو تجاوز الحد أو الخروج في وصف أحدٍ من أئمة أهل البيت سلام الله عليهـم، فنخرجهم من حدود البشـرية التي وصفهم الله تعالى بها إلى وصف الإله المطلق .

والغلـو ظاهـرة لا يـكاد يخلـو منهـا مجتمـع مـن المجتمعات، بـل إن المجتمعـات كلما ابتعدت عـن دين الله الحـق، كلما لاحت عليها بواعث وعوامل الغلو، والغلـو يرتبط ارتباطًا وثيقًا وعضويًا بمنهج وطريقة التفكير، والإنسـان الشرقي عمومًا ينتحل في الأفكار الخيالية، في حين أن الإنسـان الغربي يغلّب المادة والحس في أفكاره واطروحاته؛ لذلك فإن الإنسـان الشرقي هو بالحقيقة من أكثر الناس تقبـلاً للخرافة، بل هو أول المتبضعين من أسـواقها، ولو توقفنـا عند كل محطة لوجدنا أكثر المحطات غلواً وانحرافًا هي محطات التشيع الإمامـي، وقد تناول القوم الغلو من جانبيه الإفراط والتفريط؛ لذلك فإنك مهما فتشـت وأكثرت من البحث فلن تجد موقفًا وسـطًا عند هؤلاء، وإن التناقض هو الصفة المطردة عند هؤلاء .

والغلو صفة دارجة رائجة عن أهل التشـيع، وذلك بسـبب سطوة الخرافة على العقل ومن هذا الباب فقد أوغل أهل التشـيع في وصف أئمة أهل البيت سلام الله عليهم، وتأليههم إلى حد الهزل، ولقد حمل

الـتراث الروائي الشـيعي الكثير من الروايات التـي تؤدي بالضرورة إلى الغلو والمبالغة في وصف الأئمة سـلام الله عليهم، ولقد اشـترك في تلك المؤامرة لأجل تشـويه تراث أئمة أهل البيت سلام الله عليهم العدو والصديق على حد سواء .

ونكتفي هنا برواية واحدة تُجَسِّد هذا الفيض العارم من التحريف والتخريف، كما أنها تجسـد في الوقت ذاته الأسطورة بكل مضامينها وصورهـا، ولـك أن تطلق العنان لخيالـك، وأن تقرأ أو تسـمع هذه الروايـة؛ إذ تجد أن الإله جل جلاله والملائكة الكرام في هذه الرواية يقفـون علـى جانـب، وعلـى الجانب الآخـر تقابلهم تلـك الأرض الملتهمـة بتلك المحلمة، أما جَهَنَّم فهي ما تفتأ أن تدخل صراعـًا مع من هو موكل بها من الملائكة فتشهق وتزفر، فيتدخل الملائكة حفاظـًا ورأفـةً بأهـل الأرض للحد من غضبها . إنَّ هـذا نوع من الخطاب لا يتلاءم من المخاطب – أي أبي بصير – ولا هو من شأن المتكلم وهو الإمام ، فما ورد في هذا المتن كفيل بإثبات الافتعال والوضع فيه .

* [عن زرارة، قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام) : يا زرارة إن السـماء بكت على الحسين أربعين صباحـًا بالدم، وإن الأرض بكت أربعين صباحـًا بالسواد، وإن الشمس بكت أربعين صباحـًا بالكسوف والحمـرة، وإن الجبال تقطعت وانتثـرت، وإن البحار تفجرت، وإن الملائكـة بكت أربعين صباحـًا على الحسـين (عليه السـلام)، وما اختضبـت منا امرأة ولا أدهنـت ولا اكتحلت ولا رجلـت حتى أتانا

رأس عبيد الله بن زياد وما زلنا في عبرة بعده، وكان جدي إذا ذكره بكى حتى تملأ عيناه لحيته، وحتى يبكي لبكائه رحمة له من رآه وإن الملائكة الذين عند قبره ليبكون، فيبكي لبكائهم كل من في الهواء والسماء من الملائكة، ولقد خرجت نفسه (عليه السلام) فزفرت جهنم زفرة كادت الأرض تنشق لزفرتها، ولقد خرجت نفس عبيد الله بن زياد ويزيد بن معاوية فشهقت جهنم شهقة لولا أن الله حبسها بخزانها لأحرقت من على ظهر الأرض من فورها ولو يؤذن لها ما بقي شيء إلا ابتلعته، ولكنها مأمورة مصفودة، ولقد عتت على الخزان غير مرة حتى أتاها جبرئيل فضربها بجناحه فسكنت، وإنها لتبكيه وتندبه وإنها لتتلظى على قاتله، ولولا من على الأرض من حجج الله لنقضت الأرض وأكفئت بما عليها، وما تكثر الزلازل إلا عند اقتراب الساعة، وما من عين أحب إلى الله ولا عبرة من عين بكت ودمعت عليه، وما من باك يبكيه إلا وقد وصل فاطمة (عليهما السلام) وأسعدها عليه، ووصل رسول الله وادي حقنا، وما من عبد يحشر إلا وعيناه باكية إلا الباكين على جدي الحسين (عليه السلام)، فإنه يحشر وعينه قريرة، والبشارة تلقاه، والسرور بين على وجهه والخلق في الفزع وهم آمنون، والخلق يعرضون وهم حداث الحسين (عليه السلام) تحت العرش وفي ظل العرش لا يخافون سوء الحساب، يقال لهم : ادخلوا الجنة فيأبون ويختارون مجلسه وحديثه، وإن الحور لترسل إليهم أنا قد اشتقناكم مع الوِلدان المخلدين، فما يرفعون رؤوسهم إليهم

لما يرون في مجلسهم من السرور والكرامة، وأن أعداءهم من بين مسحوب بناصيته إلى النار، ومن قائل ما لنا من شافعين ولا صديق حميم، وإنهم ليرون منزلهم وما يقدرون أن يدنوا إليهم، ولا يصلون إليهم، وإن الملائكة لتأتيهم بالرسالة من أزواجهم ومن خدامهم على ما أعطوا من الكرامة، فيقولون: نأتيكم إن شاء الله، فيرجعون إلى أزواجهم بمقالاتهم، فيزدادون إليهم شوقا إذا هم خبروهم بما هم فيه من الكرامة وقربهم من الحسين (عليه السلام)، فيقولون: الحمد لله الذي كفانا الفزع الأكبر وأهوال القيامة ونجانا مما كنا نخاف، ويؤتون بالمراكب والرحال على النجائب، فيستوون عليها وهم في الثناء على الله والحمد لله والصلاة على محمد وآله حتى ينتهوا إلى منازلهم].[1]

• يقول محمد علي سلطاني في رسالته: [البكاء على الحسين] معلقا على هذه الرواية:

[هذه الرواية واضحة التكلف والافتعال مضافاً للاضطرب المهمين على نصها ودلالاته وهذا لا يصدر إلا عن مخيلة وضَّاعة كالتي عند عبد الله بن عبد الرحمن الأصم، فهو لم يفكر في الذي سوف يحصل عند كسوف الشمس لمدة أربعين يوماً على التوالي فهذا أمر ممتنع حسب قوانين الطبيعة، وإذا سلمنا جدلاً بوقوعه

(١) كامل الزيارات – جعفر بن محمد بن قولويه – ص ١٦٧ – ١٦٩.

لكان له انعكاس واسع على صفحات التاريخ، وهكذا بالنسبة لبكاء السماء دمًا أربعين يومًا! ولو سلمنا وفرضنا الجانب المجازي في تصوير البعد المأساوي المسيطر على الكون لمصاب سيد الشهداء لكان على متكلمٍ بليغ كالإمام الصادق أن يوظف استعمالات بليغة فصيحة لغرض ذلك، تكون مُعَبِّرة عن المأساة بأروع تعبير، لا ما يواجهنا من عبائر في الرواية من قبيل مشهد الحرب والسجال في جهنم مع حراسها وتدخل جبريل لنصرتهم، وتهدئة أوضاع جهنم، الأمر الذي أشبه ما يكون بنزاع بين شخصين حَلَّه ثالث بوساطته، أما قصة المراسلة بالمكاتيب من الحور والولدان فهو ضرب لانعكاس قصص الغرام الدنيوية المرتسمة في ذهن عبد الله بن عبد الرحمن الأصم فنسجها في مخيلته ونسبها إلى الصادق، ثم ختمها بارتقاء الصهوات للوصول إلى المنازل .

إذن فهذا المنطق أبعد ما يكون عما عهدناه عن الإمام الصادق، وهو لا يثبت فضيلة للحسين وحسب، إنما هو مدعاة للمساس بمكانته وحقيقته الخالدة، ولا نقول إلا كما قال العلامة الحلي: «إن نصوص عبد الله بن عبد الرحمن لا تنم إلا عن سخافة أفكاره وتفاهت اعتقاده»]. [1]

٧- الاستغلال السيء للسان الحال

لم يقف التشوية والإساءة للإمام الحسين وسيرته العطرة بما

(١) ص ٣٥٩.

تقدم، وإنما زاد أولئك الأوباش لأنفسهم خطيئة كبرى، فأجازوا لأنفسهم التكلم باسم الإمام أو أهل بيته، لا من باب الرواية بالمعنى، بل بلسان الحال الذي يجمع كل أنواع الكدر، ولست أدري كيف أجاز هؤلاء لأنفسهم التكلم بلسان حال الحسين أو أحد من تلك العصبة الطاهرة وهم يقررون في موروثهم أن الأئمة لا يقاس بهم أحد من الخلق ؟!

إن التكلم بلسان الحال فن كبير، ولكن لا يصلح بأي حال أن يكون شرعًا أو طريقةً للتبليغ أو أداءاً للشرع ، ثم إن هؤلاء الذين يتكلمون بلسان الحال لا يحملون من الأمانة ما تمنعهم من التقول على ابن بنت رسول الله أو أحدٍ من أهل بيته، كما أنه ليس لديهم من العلم ما يوازي علم الإمام بحيث يكونوا قادرين على إخراج مكنونات الأشياء والتعبير عن ملامحها وشواهدها بتلك الدقة وذلك المقصد الفريد الذي يريده الإمام .

إن الكثير من القراء وبتلك الحيلة الشيطانية نسبوا إلى الإمام الحسين سلام الله عليه الكثير من القضايا بقالب النثر أو الشعر دون أن يلتزموا بأي شرط من شروط المعادلة، فعلى سبيل المثال لا الحصر ، البيت المعروف والمنسوب إلى الإمام الحسين سلام الله عليه : [إن كان دين محمد لم يستقم إلا بقتلي يا سيوف خذيني] وهنا نقول إنه لا إشكال في ترداد البيت من ناحية المضمون، لا أن ينسب إلى الإمام الحسين سلام الله عليه؛ إذ إن البيت ضمن قصيدة

طويلة لأحد شعراء العرب وهو الشيخ محسن الهويزي المعروف بـ " **أبي الحَبّ الكبير** " وقد نظم هذه القصيدة في رثاء الإمام الحسين سلام الله عليه، والشاهد من هذا أن الشاعر هنا قد تكلم بلسان حال الإمام الحسين سلام الله عليه، ولكن بمرور السنين أصبح الكثير من العلماء والنخب ممن يديرون وينظّرون شأن الطائفة يرددون هذا البيت على أنه من أحد الأقوال المأثورة والمشهورة للإمام الحسين سلام الله عليه، كذلك العبارة المشهورة والتي نسبت إليه عليه السلام: [إن الحياة عقيدة وجهاد] وهي بالحقيقة شطر من بيت نظمه الشاعر المصري الكبير أحمد شوقي :

قف دون رأيك في الحياة مجاهدا * إنَّ الحياة عقيدة وجهاد**

بل إن هذا البيت قد كان شعاراً لصحيفة الجهاد المصرية آنذاك، والتي كانت تنطق باسم حزب الوفد المصري .

إن تجرؤ هؤلاء على قياس ذواتهم بذوات الأئمة سلام الله عليهم، ويجيزون لأنفسهم عند تلك الحال التكلم بلسان الحال عامل كبير من عوامل التحريف، وهو ما ينتح بالنهاية مجموعة من الأعمال والنصوص والسلوكيات تبدو في ظاهرها من أعمال وأقوال وسلوكيات الإمام، وقد أُقحمت نصوص الحال نفسها في كتب المقاتل والمجالس، ومع مرور الوقت اتخذت صيغة رسمية، واشتهرت بوصفها حديثاً أو رواية تأريخية نسبت إلى الأئمة .

وفي هذه الأزمان المتأخرة رويت كل تفاصيل حادثة الطفّ بما

تحمل من موضوعات وأساطير بلسان الحال، فأصبح بين حقيقة المقال وما آل إليه الحال بون عظيم، يستحيل فيه الرجوع إلى الحق أو معرفة الصواب .

٨- السعي من أجل ابراز مصائب جديدة

لقد تحولت الخطابة الحسينية إلى مهنة توجب على صاحبها البحث عن مصائب جدد بين ركام الكتب لذلك الحدث الأليم، حتى وإن كانت تلك الكتب من الوجادات أو ممن اشتهرت بالموضوعات، بل لا بأس باختراع الحكايات على ألسنة العوام أو بعض المشايخ الذين يدعون الكرامات، الأمر الذي يهيئ الأرضية لنفوذ أنواع الأكاذيب والخرافات، وقد قرأت عجباً في إيجاد البديل عن هذا الطريق بأن أُقترح على هؤلاء أن يحلوا الإبداع في استعراض المصائب بدلا من السعي في تلك الموضوعات عن مصائب جديدة ؟ !!

٩- الخضوع لسلطة العوام

لا يخفى أن الكثير بل الغالب من قُرّاء العزاء الحسيني يقدم ويخضع تلك الحادثة لنزعة العوام من الناس، فهو يتلقف ما تنثره ألسنتهم وأفواههم فيلقمها آذانهم، فهم في شغل دائم، وسعي متصل؛ لأجل تحقيق رغبات أولئك العوام دون النظر إلى العمل بأسباب الرشد، وتجنب أسباب الغواية والتي يتطلبها الخطاب الديني، فهم منشغلون بكل قصة وأسطورة تحرك مشاعر ذلك الجمهور، وهم كذلك ولا يزالون في تلك الدائرة المغلقة وما أكثر الكتب التي كتبت

على هذا النحو، وليس لها من مستند إلا أذهان العوام ورغباتهم، ولا يبالي هؤلاء بما يجرون على هؤلاء العوام من فساد وهلاك ، لأن الأصل عند هؤلاء قائم على الاسترزاق عن طريق الدين والمذهب، والمتاجرة بالهوية .

يقول مرتضى مطهري : [حكومة العامة – أي سلطة العامة من الناس – منشأ رواج الرياء والمجاملة والتظاهر وكتمان الحق والاهتمام بالمظاهر، وشيوع الألقاب والمقامات، والتطلع إلى المراكز العليا ..حكومة العوام تدمي قلوب أحرارنا وطلاب الإصلاح فينا] إن الاستسلام لرغبات العوام من الناس، يفتح الباب على مصراعيه لتحريف الدين؛ ذلك أن هؤلاء الجهال مع قلة علمهم، ونقص استعدادهم، وضعف طبعهم، وميلهم الحاد إلى البدع والخرافات والأساطير والمنكرات، ومن ثم سكوت العلماء عن كل ذلك، وعدم زجرهم بل السير في ركاب شهواتهم، حينها تتغلب زوائد الدين على أصوله وبدعه على سننه، حتى يمسي ذلك الدين رمزاً للوثنية والهمجية ، وهذا هو ما حاصل فعلاً ..

وفي غمرة التحديات لا ينبغي أن يتبدد لنا جهد في سبيل المراجعة الذاتية لتلك السيرة العطرة لأجل استخراج هوية تنتمي لهذه الأمة، ولا تحاربها من خلال التاريخ والتراث، يجب أن نقبل بتلك المراجعة ولا نعطلها، ولا نسمح للطاقات الغضبية والانفعالات النفسية أن تسيرنا في طريق الثأر والانتقام، وحينئذ يصبح المسار ذو معايير دينية قويمة .

إن سلطة العوام لها بابان من الشر والفساد، باب تُشَرْعَن فيه التحريفات والأساطير، وباب يمنع أي عملية للنقد الذاتي، وهذا يتمثل في ضغط أولئك العوام على رجال الدين، وفرض خيارات محددة عليهم ليتجنبوا كل ما يثيرهم، خصوصاً في تلك المسائل التي اعتادوا على استقبالها استقبال المُسَلمات، وإن الخوض فيها والتشكيك من قبل العلماء يفضي إلى ثورة عارمة ضدهم قد تفقدهم حياتهم وتسلبهم مكانتهم الاجتماعية ونفوذهم المالي والسلطوي ، لذلك فإنهم يؤثرون السلامة ..

إن سلطة العوام من الشيعة وسيطرتهم وتحكمهم في مراجعهم كبيرة جداً، بل طاغية، وهي صفة ينفردون بها دون سائر الملل والنحل، وقد صرح بتلك الحقيقة المرجع هبة الدين الشهرستاني حيث قال ما نصه: [وأما في القرون الأخيرة فالسيطرة أضحت للرأي العام على رأي الأعلام، فصار العالم والفقيه يتكلم من خوفه بين الطلاب غير ما يتلطّف به بين العوام وبالعكس، ويختار في كتبه الاستدلالية غير ما يفتي به في الرسائل العملية، ويستعمل في بيان الفتوى فنوناً من السياسة والمجاملة خوفاً من هياج العوام . حتى إنه بلغنا عن فقيه سأله أحد السوقيين، عن يهودي بكى على الحسين فوقعت دمعته على ثوبي، هل نجس الثوب أم لا ؟ . فأجاب المسكين خوفاً منه: إن جواب هذه المسألة عند الزهراء، وسأل سوقي آخر فقيهاً عمّن شجّ رأسَه للحسين فأجابه كذلك].

واعتبر الشيخ المطهري أن الاستسلام إلى سلطة العوام مرض خطير واعتباره أشد بلاء من الإصابة بالسيول والزلازل أو لسع العقارب والحيات، وإننا لو تساءلنا عن السبب في ذلك الاستسلام الرهيب والذي يهدد باجتثاث الدين وأصوله لما خفيت عنا الإجابة، بل ستتراءى بشكل لا يقبل اللبس أو الخفاء ..

إن جذر هذه الآفة وأصلها يكمن في تلك السلطة المالية المطلقة والسياسية على أولئك العلماء، وقد تناول المطهري تلك الفجيعة بقلم يتقطر مرارة فقال ما نصه: [إنَّ منظومتنا الدينية على أثر إصابتها بهذه الآفة، لا تستطيع أن تكون طليعة فتتحرك أمام القافلة، وأن تهدي القافلة بالمعنى الصحيح للهداية، وإنها مضطرة إلى التحرك وراء القافلة. إن من سمات العامّة أنهم لا يفارقون القديم الذي اعتادوا عليه، بل يتمسكون به دون تمييز بين حق وباطل، إنهم يعتبرون كل جديد بدعة واتباعاً للأهواء، لا يعرفون قوانين الطبيعة ومقتضيات الفطرة، لذلك فإنهم يخافون كل جديد من هذا المنظور، ويحافظون على الوضع القديم دائماً].

كما لم يغفل مطهري عن تداعيات تلك السلطة : [فمجتمعنا الديني المصاب بآفة العامة لا مندوحة له عندما يريد أن يتحدث في مسألة اجتماعية من الخوض في مسائل سطحية ثانويّة، مبتعداً عن الجذور العميقة التي يتعامل معها بطريقة تدل مع الأسف على تأخره، وعلى نقضه الإسلام، مما يكون سلاحاً بيد أعداء الإسلام] وتكلم

المطهري عن حالة الصمت المريب بين الأوساط العلمية استسلاماً لتلك السلطة الجاهلية، فيقول : [ليس أمام مجتمعنا الديني سوى السكوت في موضع الكلام، والسكون في موضع الحركة، والنفي في موضع الإثبات؛ لأن ذلك ينسجم مع طبيعة العامة] .

إن ما جرى في حوزة إيران الدينية من تنظيرات واعتراضات العوام عليها بشكل سافر وساخر دفع المطهري لبيان خطر تلك السلطة: [لقد ارتأى المرحوم آية الله الحاج الشيخ عبد الكريم الحائري اليزدي، مؤسس الحوزة العلمية في قم، أن يطلب من عدد من الطلبة تعلم اللغات الأجنبية وبعض العلوم كمقدمات؛ لكي يستطيعوا عرض الإسلام على الطبقات المثقفة الجديدة، وفي البلدان الأجنبية، ولكن ما إن انتشر هذا الخبر حتى جاءت جماعات من العامة وأشباه العامة من طهران إلى قم، وقالوا إن هذه الأموال التي يدفعها الناس باسم سهم الإمام، لا يقصد بها أن تصرف لتعلّم الطلبة لغة الكفار، وإنهم سوف يفعلون كذا وكذا، إذا نفَّذ الاقتراح، فلما رأى المرحوم أن ذلك سيكون سبباً لانهيار الحوزة العلمية من أساسها ألغى الفكرة مؤقتاً، وبعد ذلك بسنوات في عهد زعامة المرحوم السيد أبو الحسن الاصفهاني عقد عدد كبير من علماء النجف الأشرف وفضلاؤها المبرزون، وبعضهم اليوم من مراجع التقليد اجتماعاً تبادلوا فيه وجهات النظر، واتفقوا على إعادة النظر في برنامج الدروس التي يدرسها الطلاب، آخذين حاجات المسلمين الآنيّة بنظر الاعتبار،

وبالأخص تلك المسائل التي هي جزء من أصول عقائد المسلمين فيدخلونها في البرنامج لتدريس الطلاب، وكان الهدف إخراج الحوزة العلمية في النجف من نطاق الاقتصار على الفقه والرسائل العلمية، ورفعت هذه النتائج إلى المرحوم لإقرارها، وقد سبق له أن تلقى درسه مما جرى مع المرحوم آية الله الحائري ـ أرسل يقول: ما دمت حيًا لا يحق لأحد أن يغيّر من تركيب هذه الحوزة، وأضاف: إن سهم الإمام الذي يوزّع على الطلاب يجب أن يكون من أهل الفقه والأصول دون غيرهما).

ثم يثير المطهري أسئلة تعبر عن مرارة شديدة، فيقول: [(لماذا خرجت حوزتنا العلمية من شكل جامعة دينية إلى شكل كليّة فقهية؟ لماذا عندما يبرز علماؤنا وفضلاؤنا ويشتهرون يخفون ما عندهم من العلوم ـ غير الفقه والأصول ـ وينكرونها ؟ لماذا يكثر العاطلون والمتطفّلون في هذا الوسط المقدّس بحيث إن الزعيم الديني إذا أراد أن يسقي نبتة ورد يضطرّ إلى سقي الأشواك والنباتات الطفيلية الكثيرة ؟ لماذا يطغي السكوت والسكون والتماوت في محيطنا الديني على المنطق والحركة والحياة؟ لماذا ضعفت فيما بيننا حرية الفكر والعقيدة ؟ لماذا لا ينظّم منهاج تدريس طلاب العلوم الدينية تنظيمًا يتفق ومتطلبات العصر؟ لماذا نرى طلاب العلوم الدينية بدلاً من أن يكونوا سبَّاقين في الطليعة والهادين لمسيرة المجتمع، يعرجون خلف القافلة ؟ لماذا ؟ لماذا ؟!).

ولـم يبعـد النجعة المطهـري حين تكلـم بتلك المرارة عن سـلطة العـوام، فمـا من عالم أو داعيـة أو فقيه أو مثقف فكـر ولو مجرد فكرة أن يخـرج عن تلك السـلطة إلا وكوتـه نار المخالفة، فقد خرج السـيد هبـة الله الشهرسـتاني من النجـف وأقام بكربلاء واعتزل الناس بسـبب فتـواه الشـهيرة بعدم جواز نقـل جثث الموتى من الأماكـن البعيدة إلى النجـف لما تسـبب من آثار صحية ونفسـية وما يترتب عليه من مشـقة وعنت أمر الشارع برفعه عن عامة الناس، وكذلك الشيخ النائيني الذي دفع الأموال الطائلة من أجل سـحب كتابه من الأسواق والذي أثار فيه حفيظـة العوام ورجال الديـن التقليدين، ولما أبدى الشـيخ الخالصي بعـض الملاحظات علـى الشـعائر والطقـوس والمجالس الحسـينية انفجرت العامة في وجهه وكتب ضده أكثر من خمسة عشر كتاباً، بل إن بعـض علماء الطائفة قد أصدر الفتاوى بتكفيره وأُثيرَ الصبية والأطفال وسفهاء الأحلام لأجل الخروج في مظاهرات تسخر منه !

كذلك الشـيخ السـيد محسـن الأميـن فقد رُمِـيَ بالزندقة، لا لشـيء إلا لأنـه أفتى بتنقيح الطقوس والشـعائر مما ليس منها، وَوصف الشـيخ المنتظري بأنه عدو الزهراء بعد موقفه الواضح والصريح من قضية فدك .

وأسقط الشيخ محمد حسين فضل الله لإنكاره قضية كسر الضلع والولايـة التكوينيـة التـي نسـبت زوراً وظلمـاً إلى الأئمة سـلام الله عليهـم، وبعد حملات التشـويه والتـبري واللعـن والتضليل اضطر السـيد محمد حسـين فضـل الله إلى التراجـع عن الكثير مـن مواقفه والتخفيف منها مراعاة وتسليمـاً لسلطة العوام .

الفصل الثالث

المأتم الحسيني وطقوسه من التأسيس إلى التقديس

الفصل الثالث

المأتم الحسيني وطقوسه من التأسيس إلى التقديس

لا توجد ملة أو نحلة اختزلت معتقداتها في طقوسها مثل الشيعة الإمامية، فليس هنالك أصلا أو فرعًا من فروع الدين الشيعي إلا وتجد أثره في تلك الطقوس، ولا نعني بهذا الكلام أن بقية الأديان خالية من الطقوس أو الشعائر، والتي تمثل لحالة العلم والإيمان عند كل ملة، والتي تعتبر الأداة الفعالة لربط الخالق بالمخلوق، كذلك شدّ الأواصر بين العامة من الناس، وهذا هو ما يحدث في مناسك أو شعائر الحج، ولكن شعائر الحج كغيرها من شعائر المسلمين لا تمثل الدين كله، هذا هو الفارق بين شعائر المسلمين وشعائر الشيعة، وحادثة الطف ليست بدعًا من الحوادث، ولكن المُنَظِّرون والمُحَرِّفون شاءوا أن يجعلوا منها حدثًا استثنائيًا، وأتوا بطقوس وشعائر طغت على جوهر الدين كله ، وشوَّهت معالمه، ومَسَّت القضية الحسينية وضربتها في الصميم، وبات المتلقي لم يعرف بدايات ومآلات تلك القضية، وكلما رام أحد من العوام أو الخواص استظهار الطريق والتمسك بجنباته، لاحت له عجائج وغبارات الطقوس فأعدمته الرؤية، فأمست من أعظم الأدوات فعالية في محاربة الدين وتهديمه من الداخل وبيد أبنائه .

إن الذي يستقرئ تاريخ تلك الطقوس يجد أنها ابتدأت بابتكار

العـوام لها من غيـر ضابط أو حد معين ..وأنَّى لهـؤلاء العوام معرفة بذلـك، ثم يأتي بعد ذلك دور المراجع بشـرعنة تلك الطقوس تحت ضغط سـلطة هؤلاء العوام، ومع مرور السنين والأعوام تستمر تلك الطقوس في ذلك الخط التصاعدي من الابتكارات والأفكار والطرائق الغرائب ، وكل ذلك سيحضى دومـاً بموافقة المراجع حتمـاً وبداً

وتحـت عنوان – إحياء الذكرى – يشـرعن الفقيه لتلك الفوضى العارمـة مـن الأفـكار والطرائق التـي لا ضابط لها إلا مجـرد التعبير عـن حب أهـل البيت ومواسـاتهم، ولـك أن تتخيل مضـي أكثر من ثمانمائـة عـام على هذا الفيض، ومع مرور الزمن فسـوف لن ترضى تلك الطقوس في قلوب أولئك العوام إلا بصفة القداسـة، ومع مضي الأجيال تصبح أغرب تلك الطقوس مسـلمات بدهية في وعي أولئك العمـوم، ثم ينصرف أفرادها إلى تطبيقهـا دون أي عناء أو بحث عن الدليل، ومن ثم يحظر على المفكرين مناقشـتها وعرض أدلة الشرع في شـأنها، ومن يفعل ذلك فلا شـك في ناصبيته وعداوته لأهل البيت سلام الله عليهم .

الانحراف عند التشـيع عميق جداً، وليـس كما يتوهم البعض أن بدايته تلك الشـعائر أو الطقوس والتي تتمثل بالتطبير والمشـي على الجمر ولطخ الرؤوس والوجـوه بالطين، لكنها تتمثل بتلك الحقيقة وتعبر بصورة صارخة عن ذلك الانحراف؛ إذ أن هذه الطقوس تعبير حقيقـي عـن عقدة كامنة في نفـوس هؤلاء تلقنوها عـن طريق الدعاة

والمشايخ والمراجع وما يسمى أخيراً – الروادید – وأثر هذا الأخير أكبر وأكثر من الجميع، فهو يختزل العقدة والعقيدة بعبارة سهلة، وبنغم عذب وصوت رخيم لا تكاد النفس تقاومه، يكون له أثره السحري العظيم على النفس والضمير .

ولأنها تُعَبِّر عن مكنونات النفس والضمير وهوى غلاب لا قيد له ولا شرط، بعيدة كل البعد عن شروط الالتزام الحقيقي وقواعده الصارمة، يندفع هؤلاء بحماسة كبيره لإحياء تلك الطقوس وينحرفون بأنفسهم إلى أقسى درجات القسوة كتعويض غير واعٍ عن كم الخطايا التي يرتكبونها؛ لذلك فمن العقلنة عند هؤلاء ضرب السيوف والزحف على الخدود، حتى يقهر العقل بالخرافة والأساطير، قد يبدو هذا غريبا عند أهل الحق من أهل السنة والجماعة، ولكننا إذا عرفنا حقيقة ذلك الموروث الروائي وأنه لا يناقض الخرافة بل هو يدعوا إليها ويشرعنها؛ لذلك فإن هؤلاء الذين يلقنون هذا الموروث الروائي يخرجون في تلك المواسم وهم على يقين تام بأنهم على الصفحة البيضاء، وقد حصلوا على المغفرة التامة، وحينها يستأنفون الحياة – كيوم ولدتك أمك – ، فهذا الموروث يدعوهم إلى ممارسة تلك الطقوس التي تَهَبُ المغفرة التامة ولو بدمعة من متباكٍ، بل ولو من غبار أصاب كافرا ناصبا من أثر تراب الزائرين، وصولا إلى الاعتقاد الجازم بأن فاطمة الزهراء رضي الله عنها تطوف على جموع الباكين أو المتباكين لتقاضيهم بها جنانًا يوم القيامة .

إنَّ الـذي يجعل هذه الطقـوس تعبير صارخ عـن فوضى عارمة، ولكنها في صالح أولئك الذين يبغون النيل من هذه الأمة الإسراف في العاطفة والتعاطي مع مجريات التاريخ المزور الذي يقول بأن السماء أمطرت أربعين يومـاً دمـاً على مقتل الإمام الحسين، وأن الأفلاك قد تضاربت واسودَّ وجه الشمس حزنا على مقتل الإمام الحسين رضي الله عنـه، وليس انتهاءً بحوارات الرأس الكريـم المقطوع مع حامليه طـول الطريق وهو منقول من الكوفة إلى الشـام، لقد وَجد أولئك في الخرافة الأداة الحقيقية لتفريغ الدين من محتواه ومضمونه .

تمتاز تلك الطقوس بخطاب هابط خال من أي قيمة، غير الدعوة إلـى الانتقام والثأر والتنفـس عن عقد تعبر عنها تلـك الطقوس، مع أفكار سطحية وفقر مدقع للمعرفة عند ذلك الجمهور، فهذا الجمهور جمهـور لا يقرأ لا يطيق القراءة، ولكنه يتلقن تلك الأفكار تلقينـاً من أصحـاب المنابر والرواديد كما ذكرنا آنفـاً، لكن التركيبة الاجتماعية عنـد الطائفة مترابطة مصلحيـاً، فالنخبة من العلماء والدعاة والكتاب والمراجع مضطرون إلى الرضوخ ومماشاة العوام في غالب أحوالهم، وإلا فقـدوا كل ما يملكون وما يحوزون، وأمـا العوام فإنه لا قيمة له عند أهله وقومه وطائفته إن لم يرضخ ويسـاير حركة الشعائر، فليس أمام النخبة إلا طريقان :

الأول : أن يكـون خطابـه لذلـك الجمهـور مشـحونـاً بالمعرفة النوعية واللغة الرصينة .

الثاني : أن يغرق جمهوره بوابل من العجائب والغرائب والكرامات؛ كي يربك عقله المرتبك أصلاً، لذلك فإن الخطيب الخرافي يستأثر بالشريحة الأوسع، ولا مكان أبداً للخطيب الذي يدعوا إلى الرجوع إلى الأصول والثوابت، والحقيقة أن هذه النخب تدرك ما تفعل؛ لذلك فإن عملية استغفال الجمهور واستحماره بالخرافه خط تصاعدي لازم أبدا وهم يعلمون أن أي عملية للتصالح مع العقل تعني الخصام الأبدي مع ذلك الجمهور، وهنالك حقيقة مهمة وهي في غاية الخطورة، ألا وهي أن الطائفة كلما اتسعت كلما خلقت بيئة تحارب العقلنة .

❊ ❊ ❊

المبحث الاول

تاريخ المأتم الحسيني: نشأته، والمراحل التي مرت به

ليس غرضنا في هذا المبحث، البحث في شرعية المآتم من عدمها، بل بيان بدء تأريخها والأدوار والأشخاص والدول التي أثَّرت فيه وأضافت إليه، فلم يعد خافياً أن تلك الشعائر والطقوس تشكل الهوية والقضية والهدف والمقصد عند عامة الشيعة الإمامية، وهو أمر يبعث على العجب عند الكثير من أولي الألباب والدين؛ إذ كيف لحادثة لم تتجاوز في جميع أطوارها الزمنية أكثر من سويعات، تشكل محوراً وأساساً مقدساً لدين شريحة كبيرة من الناس، وقد أثيرت تساؤلات عديدة من المؤالف والمخالف حول تلك الطقوس وحول حقيقتها ومنشأها وتأريخها وضرورتها والهدف من ورائها، والآثار التي تترتب عليها، وفي هذا المبحث سنحاول الإجابة عن كل تلك التساؤلات ولو على سبيل الإيجاز والاختصار ومن هنا يمكننا ومن خلال النظر إلى تأريخ المأتم الحسيني من الناحية التأريخية تقسيمه إلى تلك المراحل الزمنية التالية والتي تكشف تراكمات الأهواء والأفكار والعقائد عبر مراحل التاريخ :

المرحلة الاولى :

وهي تلك المرحلة التي بدأت بسقوط شهيد الطفّ سلام الله عليه إلى عصر الغيبة وهذه المرحلة لم تتجاوز قراءة الشعر والمراثي

على الإمام وأهل بيته سلام الله عليهم، وليس في هذه المرحلة شيء من مواكب اللطم أو النياحة، وما يلاحق ذلك من الطقوس، والتي ظهرت في القرون اللاحقة، فقد ذكر المحقق الحلي أبو القاسم نجم الدين بأن: [الجلوس للتعزية لم ينقل عن أحد من الصحابة والأئمة ، وإن اتخاذه مخالف لسنة السلف].

وقد اعترف التبريزي في جواب لسؤال وجه له حول تلك الطقوس بأنها لم تكن موجودة في عصر الأئمة سلام الله عليهم، وعلل ذلك بالتقية، وتقوّل على دين الأئمة سلام الله عليهم بأن قال: [ولو كانت الشيعة في ذاك الوقت تعيش مثل هذه الأزمنة من حيث إمكانية إظهار الشعائر وإقامتها لفعلوا كما فعلنا، مثل نصب الأعلام السوداء على أبواب الحسينيات بل الدور إظهاراً للحزن].

إنّ ما ورد في خلال هذه المرحلة من بعض الآثار وبغض النظر من كونها صالحة للاستدلال كالبكاء أو إظهار بعض مظاهر الجزع والتي ننزه عنها أهل البيت سلام الله عليهم، أو تلك الأمور التي تشي بالإساءة والطعن في تلك الأنفس الطاهرة من خلال نسبة لهم مالا يصح أو ما يخالف دين الإسلام بالضرورة لا تعدو أن تكون أموراً انفعالية والتي هي من صفات وسمات النفس البشرية، فلا تعدو تشريعاً ولا تأصيلاً لطقس أو شريعة معينة، وإنما ذلك يدل على انفعال خاص لحالة خاصة، ثم إسناد تلك المظاهر أو تلك الشعائر إلى أئمة أهل البيت سلام الله عليهم دون رسول الله أو الاعتضاد

بكتاب الله دليلا قاطعا يخرجها عن المشروعية، كيف لا والرب جل جلاله يقول : [اليوم أكملت لكم دينكم] .

ومن جانب آخر فإنه من السخف حقاً والسفه الكبير العريض الاستدلال بمراثي الشعراء على تلك الطقوس، وحشرها في دين الله حشراً لمجرد أن أئمة أهل البيت سلام الله عليهم أصغوا إلى تلك المراثي أو تلك القصائد، أو أنهم لم ينكروا على أولئك الشعراء صنيعهم، هذا على فرض صحة تلك المجالس أو خلوها من ملابسات وظروف معينة، فإن أغلب الشعراء إنما هم في الغالب في هذا الباب محشورون بين الهوى الغلاب، وبين الأخذ بالأسباب من أجل الجاه أو السمعة أو طلب المال، ولا يخفى على القاصي والداني الكرم اللامتناهي لأئمة أهل البيت سلام الله عليهم، ثم دعوى اجتماع الشعراء أو أصحاب المراثي سراً في بيوت أهل البيت سلام الله عليه إنما هو من كيس هؤلاء الرواة الزنادقة، ولا دليل عليه بسند صحيح واحد .

المرحلة الثانية:

في هذه المرحلة ظهرت طقوس وشعائر لم تكن معروفة في تلك القرون الثلاثة الأولى، وإنما ظهرت بظهور الدول الشيعية الثلاث – القرمطية والبويهية والعبيدية – واستلامهم لمقاليد الحكم في أغلب مماليك الأمة الإسلامية، وذلك في القرن الرابع الهجري والذي يُعَدُّ بحق عصر الانحطاط والتبعية، وقبل الخوص في مظاهر تلك

الطقوس المستحدثة نرى لزاماً أن نتحف القاري ببعض السطور لأجل أن يتعرف فيها على حقيقة تلك الدول ومنهجها الأوحد في التدين والتعامل مع تلك الشعوب المقصودة بذلك المنهج، وللأسف الشديد أن المسلمين اليوم يقرأون التاريخ دون تدبر ولا ينظرون إليه وإلى شخوصه وأحداثه الا من جانب سياسي مهملين الجانب العقدي والديني، فكان من نتاج ذلك أن أصبحوا ينظرون إلى المُعِزّ الفاطمي، وكأنه بطل من أبطال التأريخ، وما زالت المآسي تترى على هذه الأمة مادامت تلك القراءة العوجاء العرجاء مستمرة .

لقد تآصرت تلك الدول الثلاث على استئصال شأفة الإسلام وجهدوا جهدهم، وسعوا سعيهم لإزالة أي أثر من آثار الخلافة في جميع الأقطار والأمصار التي استولوا عليها وأصدرت الأوامر لإزالة أي معلم أو أي أثر يدل على سُنِّيتها ولو بالأسماء وانتهكت وخربت المساجد وأهينت، فأدخلت فيها الخيول وقد نشروا الإباحية والتحلل وجعلوا الصحابة شراً من إبليس، وأعملوا القتل في العلماء والصلحاء، وعزلوا عامة أهل السنة عن أي مرفق من مرافق الحياة واتخذوا المساجد مراكز لدعوتهم الباطنية المخالفة لدين الإسلام وأعلنوا الطقوس والشعائر والاحتفال بالعاشر من محرم، وأجبروا الناس في الشروع فيها، وبالغوا في إذلال وإهانة عامة أهل السنة وخاصة في دينهم ومعتقدهم فنقشوا سبّ الصحابة على الجدران والأسواق والدروب وصدرت الأوامر بالعمل بها، وقد كان في ابتداء

أمرهـم أن أعطـوا لأهل تلك البلاد أن لا يمسـوا دينهـم ومعتقدهم، ولكن حين تمكنوا عملوا بكل ما يشين، فقد أتى بنو عبيد بالحسين – الملقب بالأعمى – السباب في الأسواق للسب بأسجاعٍ لُقنها ومنها: العنـوا الغـار وما وعى، والكسـاء وما حوى، ولا شـكَّ أن الغار كان فيـه النبي صلى الله عليه وسـلم وأبو بكـرٍ، وعُلِّقت رؤوس الأكباش والحميـر في أبواب الحوانيت وعليهـا قراطيس معلقة مكتوب عليها أسـماء الصحابة، وقد سـجنوا من المسلمين من سـجنوا، وأجبروا الناس على الفطر قبل رؤية الهلال .

ولا يخفـى جرائـم القرامطـة في ذلك القـرن حيث إنهـم أعملوا القتل والسـحق والذبح في كل المدن والأمصار التي سـيطروا عليها كالبصرة والكوفة وبغداد، وشـنوا الغارات على صحراء الشام، حتى بلغو جبال سـنجار، وفي عام ٣١٧ هجرية اتجه أبو طاهر القرمطي في عدد قليل من أصحابه بلغوا سـتمائة فارس وتسـعمائة راجل فاقتحم مكـة في موسـم الحج ونهب أمـوال الحجاج بعد قتلهم في المسـجد الحرام وفي البيت نفسـه، ولـم ينفع أحد من هـؤلاء الحجيج التعلق بأستار بيت الله الحرام، وقلع باب البيت وقلع الحجر الأسود وأنفذه إلـى هجر، وأخذ كسـوة البيت ففرقها بين أصحابـه ونهب دور مكة، ومن علامات هذا الحقد الدائم على بيت الله الحرام أنه في عام ٤١٣ هجرية عمد أحد الحجاج المصريين بأمر الحاكم بأمر الله إلى الحجر الأسـود فضربه بدبوس كان بيده ضربات متوالية، فكسـر قطعـاً منه،

ولكـن الناس عاجلوا الرجل وقتلوه، ثم أخذت القطع التي سـقطت من الحجر الأسـود وعجنت بالمسـك واللك وحشيت بها المواضع التي ثقبت .

وكان آخـر عهد القرامطة عليهم لعائـن الله المتتابعات أنهم كانوا يقيمـون في قراهـم المنزويـة ويقفـون على بـاب الدار الـذي فيه قبر مؤسـس مذهبهم فرسـاً بسـرجٍ ولجام، ولا يغـادرون المكان لا في الليل ولا في النهار ويقولون : [إنه للمهدي يركبه حين يظهر].

إن هذه الدول التي قامـت في القرن الرابع الهجري وأجرت على الأمة من النكبات والمآسـي مالا حد له، إنما قامت مستثمرة ضعف الدولة الإسـلامية وتشـتتها وكثرة النزاعات وبعدها عن دينها الحق، وغرقها في غياهب التصوف ومسـالكه الباطلة ، وكذلك لجدية وقوة دعوة أولئك الزنادقة وبرنامجها الواضح وكثرة الدعاة ، وقد بين تلك الحقيقة جلية الخليفة المعـز لدين الله في كتاب لأحد قواده القرامطة عام ٣٦٢ هجرية : [وما من جزيرة في الأرض ولا إقليم، إلا ولنا فيه حجج ودعـاة يدعون إلينا، ويدلون علينا ويأخـذون بيعتنا ويذكرون رجعتنا، وينشرون علمنا، وينذرون بأسنا، ويبشرون بأيامنا، بتصاريف اللغات ، واختلاف الألسن] وقد كان القرامطة يطيعون أوامرهم .

ولا عجب أن يثيروا المؤامرات والفتن والدسائس في طول البلاد وعرضها، فهكذا ديدنهم دائمـاً، وقد ابتلي أهل السـنة ابتلاءً عظيمـاً، وبهم تسـترت الزنادقة، وكانوا يعظمون القبور والمشاهد والأضرحة

وكانوا يتلبّسون بآل البيت تلبساً، كما أظهر ذلك جدهم وكبيرهم ومؤسس مذهبهم الكلبي السبئي الذي أعلن عقيدته بعد ذلك، وكان يتخفّى فيما شرع لهم من التخفي والتستر ويقول: إن علياً لم يمت وإنه راجعٌ إلى الدنيا.

والتأريخ اليوم يعيد نفسه، والذي يستقرئه ويستجمع معه الواقع، يجد تلك السمات والخصائص المشتركة لتلك الدولة التي قامت بالأمس والتي أقيمت اليوم :

١- الجور والتسلط واجتثاث كل مخالف، وخاصة من أهل السنة والجماعة .

٢- تجريم ومصادرة دين أهل السنة والجماعة .

٣ – هدم المساجد وإهانتها، وقتل أهلها.

٤ – إجبار الناس على اعتناق مذهبهم والسير في ركابه.

٥- إزالة كل الآثار والمعالم التي تدل على الحضارة الإسلامية، والمحاولة الجادة لتطمسها وتشويهها .

والمهم في هذه المرحلة أنه قد سُنَّتْ طقوس البكاء والنواح واللطم ومواكبة والتطبير والتتمثيل، أو التشبيه وما سوى ذلك من تلك الطقوس على أنه جزء لا يتجزأ من شريعة النبي محمد صلوات ربي وسلامه عليه، وذلك من خلال سيطرة تلك الدول على أقاليم الإسلام، فعندما سيطرة الدولة البويهية على مقاليد الحكم، فقد عملت على نشر الطقوس وسنّها بشكل رسمي وعلني، بل إنها

أجـبرت الناس على العمل بهـا ، وذلك من خلال إجبـار الناس إلى الخروج إلى الشـوارع، وإغلاق الأسـواق، ونصـب المآتم في بغداد وكافـة الاقاليم ، ولبس السـواء، ووضع جرار المـاء، وإجبار الناس على السير حفاة الاقدام حاسري الرؤوس إلى كربلاء، وقد استحدث المعز أحمد بن بويه إظهار الزينة في الثامن عشر من ذي الحجة وفتح الأسـواق ليلاً، وضرب الطبول، وإشـعال النيران فرحـًا بعيد الغدير المزعـوم، قال حسـن مغنيـة: [جاء العهـد البويهي في القـرن الرابع الهجري فتحرر هذا اليوم، وتجلى كما ينبغي حزينا في بغداد والعراق كله، وخراسـان وما وراء النهر والدنيا كلها، إذ أخذت تتوشح البلاد بالسـواد، ويخرج الناس بأتم ما تخرج الفجيعة الحية أهلها الثاكلين، وكذلـك الحال في العهد الحمداني في حلب والموصل وما والاه، أما في العهود الفاطمية فكانت المراسـيم الحسـينية في عاشوراء تخضع لمراسـيم بغداد، وتقتصر على الأصول المبسطة التي تجري الآن في جميع الأقطار الإسـلامية والعربية، وخاصة في العراق وإيران والهند وسـوريا والحجاز فتقام المآتم والمناحات وتعقد لتسـكب العبرات وأصبحـت إقامة الشـعائر الحسـينية مظهراً من مظاهـر خدمة الحق وإعلان الحقيقة] .

أمـا الطقوس التـي أضافتها الدولـة العبيدية إلى طقـوس الدولة البويهية إضافة إلى:[حي على خير العمل] إلى الآذان والسجود إلى البشـر، فكان الخليفة العبيدي الحاكم بأمر الله أول من أمر بالسجود

له، فكان الخطيب إذا ذكر اسمه على المنبر وقف الناس ثم خروا سجدا له، حتى إنه ليسجد بسجودهم الرعاع من أهل الأسواق، كما أن الدولة العبيدية قد أمرت بكتابة – محمد وعلي خير البشر – ولعن الخلفاء الثلاثة، والاحتفال بالمولد النبوي والأئمة السبعة .

ثم أخذت هذه المجالس بالاتساع، ففي القرن السابع للهجرة دخلت قراءة [مقتل الحسين] لابن نما الحلي ثم السيد ابن طاووس ضمن منهاج المجالس، وهذان المقتلان هما من أوائل المقاتل التي تتحدث تفصيلياً عن المآسي الدامية لواقعة كربلاء، وكان القرّاء يقرأون المقتل بصوت شجي يستدر دموع المستمعين.

المرحلة الثالثة :

وتبدأ هذه المرحلة بظهور الدولة الصفوية، والتي امتد نفوذها ليشمل العراق، والصفويون قبائل تركية سبع حكموا الهضبة الإيرانية من عام ١٥٠١ إلى ١٧٢٤م . ومؤسس دولتهم هو إسماعيل ابن حيدر بن جنيد بن صفي الدين الأردبيلي الذي تبنى التشيع في إيران رسمياً عام ١٥٠٢م وعمل على نشره بشتى الوسائل، وشخصيته جمعت النقائض كلها، يقول المستشرق الإنكليزي إدوارد براون: [هو من جهة قاسٍ متعطش للدماء إلى حدٍّ لا يكاد يُصدَّق، بينما كان من الجهة الأخرى وسيماً ذا أخلاق رقيقة محبوباً من جنوده]

كان يعلن أنه لا يتحرك إلا بمقتضى أوامر الأئمة ؛ لذلك فهو معصوم وليس بينه وبين (المهدي المنتظر) فاصل، ووصف ولايته

بأنها صادرة من(ختم النبوة وكمال الولاية) وزعم أنه المقصود بالآية﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَ ﴾[مريم: ٥٤]، وأوصلوا ظهوره بنبوءة لعلي ابن أبي طالب – رضي الله عنه – فكان من الغلاة في علي بن أبي طالب، ثم غلا فيه أصحابه حتى العبادة وسجدوا له.

وعندما سيطر الشاه إسماعيل الصفوي على (تبريز) وأراد فرض التشيع على أهلها بالقوة نصحه مستشاروه أن لا يفعل؛ لأن ثلثي سكانها من أهل السُنَّة، فأجاب قائلاً: [أنا مكلَّف بذلك، وإن الله والأئمة المعصومين معي، وإني لا أخاف أحداً، فإذا وجدت من الناس كلمة اعتراض شهرت سيفي بعون الله فيهم فلا أبقي على أحد منهم حيًا].

وقد تجلَّت المآتم والطقوس في زمن هذه الدولة أكثر من غيرها، حيث إنهم أعلنوا أن المذهب الرسمي للبلاد هو المذهب الشيعي، وأجبروا الناس على ممارسة تلك الطقوس والشعائر، وأنفقوا الأموال الضخمة في عمارة المراقد، وفي هذه الفترة ظهر الكثير من العلماء والمراجع الشيعية الخرافيين والذين أحدثوا الكثير من تلك الطقوس وأسسوا لها، كما أنهم قدسوا الماضي منها، ومن هؤلاء وفي مقدمتهم المولى حسين بن علي الكاشفي المتوفي سنة ٩١٠ هجرية وكتابه روضة الشهداء .

إن أول ما ابتدأ به الصفويون: الطقوسُ والشعائر، الأمر الذي جعلهم يملكون بين عوام الشيعة بعداً اجتماعيًا ودينيًا ، كذلك

استحداثهم لوزراة الشعائر الدينية، واستوردوا من جبل عامل كل المظاهر والطقوس الحسينية، واستقدموا علماءها الذين يَنُزُّون بالبدعة والخرافة، كما ولقد سافر وزير الشعائر الحسينية هذا إلى أوروبا الشرقية حيث كانت أوروبا آنذاك في صراع شديد مع الدولة الإسلامية العثمانية، فدرس الوزير الصفوي وحقق في المراسم والطقوس الدينية المتبعة هناك، ومنها طريقة إحياء ذكرى شهداء المسيحية، وأدواتها لينقلها بحذافيرها إلى إيران ثم جرت العادة وبمساعدة الملالي لإجراء بعض التعديلات عليها مما يجعلها صالحة ومناسبة ومتناغمة مع البيئة الجديدة، وقد أدى ذلك ومن خلال التطبيق العملي لتلك الطقوس بتوفير كل مستلزمات النجاح، وبذلك تحولت تلك الطقوس إلى فلكور شعبي يغني بعمقه الموروث التأريخي والحضاري، فمن تلك الشعائر :

[النعش الرمزي، والضرب بالزنجيل، والأقفال، والتطبير، واستخدام الآلات الموسقية وغيرها من الأطوار الجديدة] وكل تلك من المظاهر المستوردة من المسيحية بحيث أنه بوسع أي باحث أن يشخص أنها صورة طبق الأصل من تلك، كما وظهرت في هذا العصر[التشابيه وهي صورة مستنسخة عن مراسم العزاء المسيحي في تمثيل الشهداء الأوائل للمسيحية لضحايا القياصرة الروم وطريقة قتلهم والتمثيل بهم، مروراً بسيرة الحواريين والعذراء، وتجسيد عذابات المسيح على يد اليهود، والروم، وقد أدرك الشاه إسماعيل

الصفوي عملية التمثيل هذه وأثرها على الشعوب، فاستقتل في سبيل نشر[التشابيه] لأجل نشر التشيع بين الإيرانيين ابتداء ، وذلك لما يثيره هذا التمثيل من استجاشة للعواطف وما يثيره المشهد الذي يظهر في استشهاد سيد الشهداء الحسين من عاطفة جرّارة في نفوس عامة الناس، ومن ثم تحول الحالة أو المرحلة إلى التعاطي والبكاء، وإن كان خالٍ من المحتوى الفكري ابتداءً .

وأهم الطقوس التي اخترعوها هي:

١- السجود على التربة الحسينية، ومخترع هذا الطقس هو العالم الشيعي (علي بن عبد العالي الكركي) من أهالي جبل عامل في جنوب لبنان.

٢- السجود للعبد (أي: لإسماعيل الصفوي) والملوك من ذريته، وصانع هذا الطقس هو العالم الشيعي (علي بن عبد العالي الكركي) الذي لُقِّب بـ: مخترع الشيعة.

٣- تغيير اتجاه القبلة في مساجد إيران وجوامعها .

٤- تنظيم الاحتفال بذكرى مقتل الحسين بن علي في بداية السنة الهجرية (شهر محرم) وإضافة مجالس التعزية وتطويرها.

٥- إضافة (حيَّ على خير العمل) إلى الأذان.

٦- الأخذ بالشهادة الثالثة (أشهد أن عليّاً ولي الله)، ويذكر العالم الشيعي (ابن بابويه القمي) أن المفوِّضة وهم طائفة من الشيعة الغلاة زادوا في الأذان (أشهد أن عليا ولي الله ـ أو أشهد أن عليا أمير المؤمنين).

٧- ضرورة الدفن في النجف بجنب الإمام علي بن أبي طالب.

ولقد أولى ملوك الصفوية المآتم الحسينية اهتماما بالغا، ولم يغفلوا عنها حتى في أوقات الحروب والأزمات بل إنهم قد جعلوا من تلك الطقوس في تلك الأوقات أداة فعّالة في تطويع وتحفيز الشعب الإيراني نحو الأهداف المنشودة، فلم يغفل الشاه عباس عن المآتم والطقوس في ليالي عاشوراء، وهو يدق طبول الحرب على قلعة إيراوان وكذلك لم يغفل الشاه الصفوي عن تلك الطقوس بل كان يمارسها هو وجيشه بتلاحم كبير وهو ملتحم مع الجيوش العثمانية في معركة جالديران .

وكان كتاب روضة الشهداء الخرافي يقرأ في البلاط الصفوي أيام محرم، وكان ملوكهم يشاركون الناس الحضور في تلك المآتم والطقوس مرتدين زي الحداد، وفي هذه الفترة إضافة لانتشار تلك الطقوس فقد تنوعت أيضا بسبب تلك الدعوة الصارخة من قبل الحكام والمراجع الشيعة إلى ذلك، حتى قال أفندي [أضاف كل مجلس عزاء شيئاً على سابقه] بل إن بعض العلماء والمراجع أطلقوا مسمى [الأطوار الغريبة] على بعض تلك الطقوس، وقد أدى تطور المآتم والطقوس في هذه الفترة من حيث الكمية والكيفية إلى دخولها إلى دائرة الفلكور، فأصبحت تقليداً دينياً ووطنياً، فمن هذه الطقوس التي كانت لها أصل في زمن الدولة البويهية والعبيدية وطورت في زمن الدول الصفوية :

١- إضفاء طابع الحزن على المدن.
٢- اكتساء المساجد والحسينيات والطرق بالسواد ابتداءً من شهر محرم الحرام .
٣- ارتداء الناس كافةً السواد وعدم الاهتمام بمظهرهم كعدم الاكتراث بحلق الذقن أو تصفيف الشعر، بل إن بعض من هؤلاء يطلون أجسادهم بالسواد أو التراب والطين ويجوبون الشوارع والأزِقَّة .
٤- إقامة المآتم في البيوت والمساجد وخاصة في الأيام الأولى من محرم.
٥- تجول مواكب العزاء في الطرق والأزِقَّة مظهرين اللطم واللدم ضاربين صدورهم ورؤوسهم بالسلاسل أو الحجارة أو الأمواس.
٦- رفع الأعلام المختلفة الألوان ، وخاصة السوداء على الأبواب وأسطح المنازل .
٧- النياحة والبكاء والتباكي والعويل في مجالس العزاء .
٨- صنيعة الطعام في أغلب تلك المجالس .
٩- اجتماع المواكب في أماكن خارج المدينة .
١٠- تمثيل شخصيات واقعة كربلاء . وسير هؤلاء الممثلين ملطخين بالدماء صامتين ، كما كانوا يضعون أطفالاً عراة على ظهر الجمال تذكيراً بأطفال أهل البيت.
١١- حمل تابوت عليه سيف وعمامة وأسلحة أخرى، وقيادة جياد من دون فرسان وعلى ظهورها أنواع الأسلحة والعمائم تذكيراً بالحسين وأنصاره الشهداء .

١٢- حمل هودج فيه طفلان يمثلان طفلي الحسين سلام الله عليه، وقيادة جمال تحمل الهودج .

١٣- عرض جلد خروف مذبوحاً تواً على ظهر بعير تنبت السهام فيه .

١٤- تمثيل الرؤوس المقطوعة بالتماثيل أو بطرق فنية أخرى .

١٥- بكاء النساء ونواحهم في الطرق والبيوت، وحين التفرج على مواكب العزاء .

١٦- تجول مجموعة في الطرق ضاربين الحجارة ببعضها .

١٧- نثر التبن على رؤوس المعزين .

١٨- حمل الرايات والأعلام والمشاعل والشموع أمام المواكب .

١٩- سير أشخاص إلى جانب تابوت الحسين حاملين أطباقا على رؤوسهم على أنواع الأسلحة راقصين على أصوات تلك الطبول.

٢٠- قيادة بغل بسرج فاخر وتزيين البغال بالرماح والأقواس والسيوف وأنواع السلاح .

٢١- إطلاق اثنتي عشرة حمامة .

٢٢- سير ٧٢ شخص لابسين الدروع بين المعزين .

٢٣- الطواف بتماثيل خشبية لابن زياد وابن ملجم في الطرق وحرقها في نهاية الموسم.

وقد شكلت الطقوس العاشورية في زمن الدولة الصفوية من حيث الممارسة والتأسيس والتقديس تغييباً للعقل والوعي الشيعي،

وتجـاوزاً على العديد من المسـلمات التي نادى بهـا أئمة أهل البيت سلام الله عليهم .

سادية الشاه الصفوي :

إننـا لـو تأملنا في تاريخ الشـاه الصفـوي وسـلوكياته مع الخاص والعـام لقطعنا بـأن الرجل لم يكن بذلك الشـخص السـوي، وربما هذا هو أحد الأسـرار في ذلـك الغلو في ذلك الإجرام والإسـراف في إظهار اسـتحداث تلك الطقوس، وإننا ونحن إذ نقول هذا القول عن تلك الشـخصية المأزومة فإننا اليوم لا نرى فرقا بين منطقه وسلوكه، ومنطق وسـلوك عامة الشـعية، فهو الذي قال بالأمس عن النصارى: [إننـي أفضل حذاء مسـيحي على أكـبر رجالات الدولـة العثمانية] وهـذا هـو عين، بل هـو أقل ما ينطق به عامة الشـيعة اليـوم عن عامة أهل السُـنَّة وخاصتهم، ولقد كان الشاه الصفوي يجمع بين التعصب الدينـي، والغلو في التكفير، والدموية في تطبيقـة، وقد أكثر من القتل حتى إنه قتل ملك – شـروان – وأمر بوضعه في قدر ويطبخ، ومن ثم أمـر جنوده بأكلـه .. وقد فعلوا، وكان لا يتوجه إلـى أي بلاد إلا وقد فعل بها المناكير، وقد كان من دمويَّته أن ينبش قبور علماء أهل السنة والجماعة ويحرقهم، وكان في مقدمة تلك القبور التي أباحها قبر أبي حنيفة النعمان رحمه الله، وكان أيضـاً يمعن في إذلال وقتل أهل السُنَّة وخاصـة أولئك الذين ينتسـبون إلى كبار الصحابـة رضي الله عنهم، فقد جرد السيف في كل ذرية خالد بن الوليد رضي الله عنه ، يقول بأن

شـدقم: [فتح بغداد وفعل بأهلها النواصب ذوي العناد ما لم يسـمع بمثله قط في سـائر الدهور بأشـد أنواع العذاب حتى نبش موتاهم من القبور] .

وكان إذا قتل أميراً من الأمراء أباح زوجته وأمواله لشـخص لمن يختار.

ويكفـي دليلاً على تعصبـه وهمجيته أنه دعا أمه للتشـيع وكانت سنية حنفية، فأبت ذلك فأمر بقتلها، وبلغ من طغيانه وجبروته أنه كان يأمر جنده بالسجود فيسجدون له.

وأكثر المراسم الشاذة، والطقوس الغريبة، والممارسات المقززة في المناسبات الدينية لدى المذهب الاثني عشري إنما هي من إحداث هـذا الخبيث الضـال، وظل أتباعه يمارسـونها ويتناقلونهـا جيلاً بعد جيل إلى يومنا هذا، ولا يتسع هذا المقام المختصر لعرض ما أحدثه لهم من ضلال على ضلالهم حتى إن عقلاء مذهبهم لا يرضون كثيراً من طقوسهم، ويرون أنها تسيء لمذهبهم في هذا العصر.

* * *

المبحث الثاني

الدولة القاجارية والتأسيس لمرحلة التقديس

القاجاريون قبيلة تركية كانت ضمن القبائل التركية السبع التي حكمت الهضبة الإيرانية ضمن إطار الدولة الصفوية، وبعد سقوط الصفويين تمكَّن نادر الإفشاري من حكم إيران إلى أن قُتل عام ١٧٤٧م حيث عمَّت الاضطرابات إيران، إلى أن تمكن القاجاريون من حكم إيران للفترة من ١٧٧٩ إلى ١٩٢٦م. وفي عهدهم اخترعت طقوس أخرى عديدة، من أبرزها:

١- اختراع لقب (آية الله).

٢- استحداث أول حسينية تسمى بالحسينية الحيدرية في مدينة الكاظمية في بغداد في عام ١٨٧٦م.

٣- إضافة عبارة (أشهد أن عليًا أمير المؤمنين) إلى الأذان عام ١٨٧٠م في العراق بناء على أوامر الشاه القاجاري (ناصر الدين شاه) عند زيارته مدينة كربلاء؛ حيث طلب من مؤذن الحضرة العباسية إضافة العبارة المذكورة إلى الأذان، وأصبحت هذه الصيغة متَّبعة عند الشيعة في جميع أنحاء العالم بعد ذلك، علمًا بأن هذه الصيغة كانت متبعة في إيران منذ سيطرة الصفويين وفرضهم مذهب التشيع بالقوة عليها.

٤- إضافة زيادات على تنظيم الاحتفال بذكرى مقتل الحسين بن

علي في العاشر من محرم عن طريق الضرب بالسلاسل الحديدية على الظهر، والسكاكين على الرأس، حيث كان للتركمان الآذريين إسهام كبير في هذا الصدد.

ومن هنا نعلم اهتمام ملوك القاجار بالطقوس والتقاليد، فقد أخذوا بل توارثوا جميع الطقوس التي خلفتها الدولة العبيدية والبويهية والصفوية، ومما خلفته القرون بين تلك الدولة مما شرعه العلماء والمراجع من غير مثال سابق، وبغض النظر عن كون هؤلاء القاجار صادقين أو غير صادقين في تشيعهم، فإن الغاية قد تحققت في الحالين، ولكنهم بممارستهم تلك الطقوس والدعوة اليها إضافة إلى نفوذه السياسي والاقتصادي والاجتماعي كان كافياً لأن يمارسوا الحكم بكل كفاءة، الأمر الذي يغنيهم عن ذلك الادعاء، وقد يأخذ بعض الباحثين على ملوك القاجار بعدهم العلمي والمعرفي عن الدين، بل عن مسرح الحياة بصورة عامة، ولكننا وبالتأمل بل وبسبر الحالة الشيعية، فإنهم لا يجدون بذلك بأسا إذا لم يكن الحاكم شيعيا، ولا يمانع من ممارسة تلك الطقوس، فما بالك بالدعوة إليها ونشرها بين الناس واستحداث الجديد منها، ويرى بعض الباحثين والمحققين أن ملوك القاجار ولمبالغتهم في تلك الطقوس قد شوَّهوا صورة الطقوس الأولى لدرجة أنهم قد اعتبروا على غير مذهب سلفهم من العبيديين والبويهيين والصفوين .

وقد كان ملوك القاجار يؤكدون على اهتمامهم الشديد بتلك الطقوس والشعائر ، وقد نقل لنا التاريخ أن الآغا محمد خان مؤسس الدولة القاجارية كان يأمر بنفسه بإقامة العزاء، إضافة إلى المشي على الأقدام لزيارة الإمام الرضا، وصنعه ضريحا مُذَهَّبًا للإمام علي سلام الله عليه، وقد كان هنالك نزاع حول حلية التشابيه التي ظهرت في العصر الصفوي ولكن الفتوى التي صدرت من الميرزا القمي بحلية إقامتها حلت هذا الإشكال الكبير، ولقيت رواجًا واسعًا بين أوساط الشعب الإيراني والشعوب المتآلفة معها، كما وينقل لنا التأريخ اهتمام الملك فتح علي شاه بالمظاهر الدينية وخاصة المآتم وأكثر منها، كما اهتم بأعمال الأماكن الدينية وقبور الأئمة وأبنائهم وكل من ينتسب اليهم ، كما أنه اهتم بالمدارس الدينية والتي تهتم بنشر التشيع كالمدرسة الفيضية، ومما يميز هذا الملك عن غيره من الملوك أنه كان شديد الاهتمام بتلك الطقوس، بل إن حبه لها وصل إلى حد الشغف والوله ، فكان يقيم المأتم الحسيني في كل ليلة جمعة وخاصة في شهر رمضان وأشهر محرم وصفر، ولقد كانت إدارة المراسيم الخاصة بالتشابيه تحت أمره بصورة خاصة، أو بعض من أفراد أسرته، إن الذي يؤسس إلى مرحلة التقديس في تلك الدولة هو أن التظاهر بالتدين بتلك الطقوس لشخص الملك والحاشية ومن ثم الدعوة إليها وترسيخ ذلك الأمر بين العامة من الناس لدرجة أن الوزير لا يكاد ينقطع عن البكاء ولا أمين الدولة

الـذي لا ينفك عن وضع يده على وجهه، ويبكي بصوت عال لشـدة الحزن والألم، وكذلك بقية رجالات الدولة وكبرائها، ولم يغب عن هذا المشـهد أسـرة الملك وكل ذلك يجري على مرأى ومسـمع من العامـة من الناس، الأمر الذي يعمق شـأن تلك الطقوس، ويؤسـس لقدسيتها في نفوسـهم، وكل ما يجري من هؤلاء الخاصة أمام هؤلاء العامـة، وبعض النظر إن كان تديناً أو رياءً، وسـواء أكان ذلك البكاء ناشـئاً عن حزن أو تمثيل أو ناشـئ عن تلك القصـة التراجيدية التي يشـاهدونها والتـي تثير فيهم الحـزن، فإنه في الحاليـن يكون الغرض قد تحقق، وقد خَلَّفـت تلك الالتزامات وجهـاً مقبولاً للملك وعامة المراجـع، الأمـر الذي أعـان هؤلاء الملـوك في حروبهـم وأزماتهم، ومما يثير الاسـتغراب في ملوك القاجـار هو تلك العلاقة الغريبة التي كانـت تربطهم بالمتصوفة، فقـد كان وزير الملـك القاجاري محمد المتصـوف الميـرزا آغاسـي، وكان هذا الرجل محـل اهتمام الملك لدرجـة أنه أعطاه لقب [قطب عالم الشـريعة والطريقة] وعد نفسـه مريداً وتابعـاً له ، وقد كان هذا الآغاسـي شـديد الدفاع عن التصوف الأمـر الذي أدى في بعـض الأحيان إلى إضعـاف العلاقة بين الملك وبقيـة المراجـع والفقهـاء، ولكن وبرغـم كل ذلك، فإننـا نرى ذلك الاهتمام المنقطع النظير لذلك الملك بالمآتم الحسـينية والشـعائر ، خاصة التشـابيه وخيمة العزاء ، بل وتنافس العائلة بأسرها على ذلك الأمر.

ومـن المظاهـر التـي كانـت تؤسـس لحالة مـن التقديـس لتلك الطقـوس: مـا يرويه أحد السـواح الـروس من مشـاهداته لها، يقول هذا السـائح في تقريره عن شـهر محرم في طهران ، في أول عام حكم الملك محمد: [تقام طقوس محرّم في طهران بأبّهة وجلال، تنصب في الأيـام الأولى من محرم خيم سـوداء مرتفعة، في نقاط مختلفة من المدينـة، يعتلي الخطبـاء المنبر داخل هذه الخيـم، ويأتون على ذكر المصائب التي حلّت في هذه الأيام بصوت مرتفع، ويبدو الحزن على وجوه الناس، ويشـرعون بالبكاء والنحيب، كما يجتمع في الليل كثير من المعزين مرّةً أخرى في هذه الخيم، ويوقدون المشـاعل، ويبكون لساعتين أو ثلاث أو حتى طوال الليل، يلطمون ويصرخون يا حسين، بل يشـتدّ الحماس ببعضهم أحيانـًا حتى يجرح نفسه جروحـًا عميقة بـأدوات حـادّة؛ ويتعالى الصراخ في شـوارع طهـران، بحيث يتصوّر الإنسان أنّ جيشـًا هجم على المدينة، يقوم بذبح الناس] .

وكذلك من المشـاهد والأفعال التي قام بها ملوك القاجار فزادت مـن حدة التقديـس لتلك الطقوس، هو ما قام بـه أحد هؤلاء الملوك وهو ناصر الدين، والذي كان أكثر ملوك القاجار اهتمامـًا بالطقوس، إنـه كان يـأتي ضريح الإمام الحسـين وهـو يخوض أفـواج الزائرين لذلك المرقد فيقف تحت قـدم الخطيب الذي يخطب بالناس حول مصائب الحسـين سـلام الله عليه ، وما يجري عليـه وعلى أهل بيته، ثـم ينادي الخطيب بعد الفراغ مـن خطبته : [هل من ناصر ينصرني]

حينها يقف الملك بين أردان الخطيب ويديه ويصرخ بأعلى صوته: [أتى ناصرك، وهو واقف في حضرتك لنصرتك] فيضج الناس بالبكاء والعويل، ثم يقف الملك بعد هذا المشهد أمام الضريح فينزع تاج الملك ويرميه بشده على الأرض .

ومما يؤسس لذلك التقديس أيضا كثرة تلك المآتم، فقد كان يقام في مدينة طهران ما بين المائتين إلى الثلاثمائة مأتم خلال العشرة الأيام الأولى، وكان أهم عمل قام به الملك ناصر الدين لدعم تلك المآتم والشعائر هو بناؤه لخيمة عزاء الدولة، فكانت هذه الخيمة فاخرة، ولا نظير لها، وقد خطرت له هذه الفكرة بعد سفره إلى أوروبا، وقد كانت خيمة عزاء كبيرة موجودة في طهران منذ عام ١٨٤٩م، لكنها لم تحظ بقبول الملك؛ لذلك أمر ببناء خيمة عزاء جديدة على غرار قاعة ألبرت هال الملكية في لندن بعد سفره إلى بريطانيا عام ١٨٧٣م.

وكان للمسرحيات التي تقام في هذا العصر الأثر الكبير في هذا التقديس، ففي تقرير لجيمز ويلز يتحدث فيه عن تلك المسرحيات وأثرها : [بعد أن تُعدّ جميع لوازم المسرح، يأمر من يسمّونه « **نواب والا** « بفتح الأبواب، وإدخال النساء.. وما إن تفتح الأبواب حتى تهرع النساء بالدخول، ويسعين للحصول على أفضل مكان للجلوس، فنساء الأشراف كنّ يبعثن بخادماتهنّ ومعهن ما يفترشنه؛ كي يهيئنّ لهنّ المكان في خيمة العزاء عند وصولهن، وكثيراً ما يحصل تدافع وشجار حين دخول النساء، لكنه لا يدوم طويلاً، حيث يُسكت

الخدام المنظمون جميع الحضور بعصيّهم، ويصل عدد النساء إلى خمسة أو ستة آلاف، وبعد عدّة دقائق، يفتح الباب الثاني ويدخل الرجال بضجيجهم، ويصطفون في الجانب الأيمن من خيمة العزاء مقابلَ المنصّة، ثم يعلن صوتُ المدفع دخولَ الخطباء والنعاة إلى المجلس، فيعتلي أحدهم المنبر ويجلس عليه بوقار وأدب، ويجلس الآخرون إمّا على الدرجات السفلية للمنبر أو حوله، ثمّ ينصت الحضور للخطيب، فيبدأ بصوت معتدل قائلاً: بسم الله الرحمن الرحيم، وبعد الحمد والثناء لله تعالى، يقرأ موجزاً من المصائب التي حلّت بالإمام الحسين، وما إن يذكره بالاسم حتى تعلو أصوات الحضور بالبكاء والعويل، ويصرخ بعضهم: يا حسين! تعتصر قلوبنا ألماً على مصابك، ثم يصرخ الخطيب بأعلى صوته: حسن حسين ـ حسن حسين، ويلطم بقوّة على صدره العاري، فيقلّده الرجال من دون تأنٍّ، ويصرخون بصوتٍ واحد: حسن حسين، ويؤدّي هذا الضجيج إلى انفعال المستمعين فيبكون بشدّة، وبعد بكاء طويل، ينزل الخطيب ويذهب لشأنه، ثم تدخل فرقة عزف الأمير ..

وبعد الانتهاء من العزف تدخل عدّة فرق بالترتيب التالي: الفرقة الأولى مجموعة من السقاة، يحمل كل واحد منهم قربةً على كتفه، يصرخ بعضهم ويقول ما يثير شجون الحضور، حين سير هؤلاء بين الحضور من الرجال والنساء، قائلاً: إنّ الحسين مات من أجل قطرة ماء .

ويقـول الآخر: يا حبيبي! يا حسـين!. وبعد السـقاة، تدخل فرقة الدراويـش يضربـون على ظهورهـم وأكتافهم العارية بسلاسـل من حديد ويردّدون: حسـن حسين. ثم يأتي دور مجموعة مختارة نذرت سـفك دمها في مأتم الحسـين، وترتدي ثياباً بيضاء كالشـهداء الذين يلبسـون الكفـن في سـاعة الحرب، ويضربـون رؤوسـهم وجباههم بالسيوف، فتسـيل دماؤهم وتثير أحاسيس خاصة حين تلوّث ثيابهم البيضـاء، ويكثر بعض المتعصّبين من الضرب بالسـيف على رأسـه حتى يقع على الأرض مغشياً عليه من شدّة النزف، فيثير بذلك حزن الحاضريـن ويزيد بكاءهـم، وبعد خروج هـذه المجموعات تدخل فرقـة عزف « **نواب بالا** « وتشـرع بالعزف بقـوة، ثم يدخل الممثلون إلى خيمة العزاء..]

وكانت هذه المسرحيات أو التشابيه تقام في كافة أنحاء إيران بشكل مختصـر أو مفصل، وأهمها ما يقام في البلاط الملكي ويحضره الملك شـخصيا، يقول يعقـوب إدفارد بولاك، طبيب الملـك ناصر الدين عن رواج التشـابيه في العهـد الناصري: [راجت التشـابيه بشـكل لا يمكن لأحـد من الأعيـان التغاضي عنه علـى الرغم من تكاليفهـا الباهظة؛ إذ عليهم القيام بضيافة الحضور بالشـراب طوال فترة المسرحيّة، وبعشاء ملكـي بعـد المسـرح، أضف لذلـك أجـور الممثلين، وبمـا أن جميع الأعمال متوقفة طوال شهري محرم وصفر، والدخل معلّق تؤدي إقامة هذه المراسم إلى تخريب بيوت كثيرة، ووقوع عوائل في الدَّين] .

ومما امتازت به الطقوس في هذا العصر أيضا: رواج التطبير، والضرب بالموسى والسلاسل، ووضع الأقفال على الأجساد، وقد اختلفت الآراء حول جذور هذه الطقوس فمن الباحثين من ذهب إلى أنها اقتباس من الطقوس المسيحية، والتي كانت تقام باسم مصائب المسيح وفي ذكرى استشهاده، ويعتقد آخرون أن العرب هم الذين أدخلوا تلك الطقوس، فهي تشبه تقاليد العرب من حيث الشكل والإطار، والحقيقة أن نظرة فاحصة لتلك الطقوس نجد أنها أبعد ما تكون عن أفكار العرب وسلوكياتهم شكلاً ومضموناً، وإنما طوعت تلك الطقوس الغريبة بما تقرر في أذهان أولئك المراجع .

فيما يرى جماعة آخرون أنها انتقلت من أتراك أذربيجان إلى الفرس والعرب ، ولا سيما التطبير والضرب بالموسى .

شناعة تلك الطقوس

يتحدث بنيامين عن التطبير والطقوس التي كانت تجري في ذلك العهد : [كنتُ مقيماً في طهران عام ١٨٨٤م، وكانت مجموعات تجوب الشوارع وتبدي انفعالات شديدة وغير مسبوقة.. وفي هذه الأثناء ظهر جماعة يرتدون ثياباً بيضاء وقامات (سيوف) في أيديهم، فإذا بهم يرفعونها بحماس ويضربون بها رؤوسهم، فتسيل الدماء من رؤوسهم ومن تحت القامات، وتصبغهم باللون الأحمر، ما أبشعه من منظر! لا يمكنني نسيانه أبداً، يغمى أحياناً على من يلطمون بحماس، أو ينزفون بشدة فيقعون أرضاً، وقد يموتون إن لم يسعفهم أحد] .

الدربندي ودوره في إشاعة الطقوس وترسيخها

الدربندي هو الملا آغا الدربندي، رجل خرافي حتى النخاع، ألف كتاب في المأتم الحسيني وسماه: [أسرار الشهادة] وقد جمع فيه الغث والسمين والكثير من القصص الواهية مما لا يصدقه العقل ولا دليل عليه من النقل ، فكان للدربندي ولكتابه هذا الدور الكبير في ترويج المآتم والطقوس وكذلك كان له الأثر الكبير في إدخال الروايات الكاذبة والخرافية وإشاعتها، بل إن أدوار الدربندي قد تجاوزت حد التسطيح في الأفكار، وإنما وصلت إلى اغتيالها في المهد، يقول المطهري : [ثم بعد ذلك ظهر علينا قبل حوالي ستين أو سبعين عاماً المرحوم ملا آغا الدربندي، وقام بجمع كتاب الروضة مضيفاً إليه بعض القصص الأخرى ، وألَّف كتابه المعروف ـ أسرار الشهادة – وإنني يجب أن أقول الحقيقة بأن محتويات هذا الكتاب تدفع الإنسان للبكاء على الإسلام] [١]

ولم يكن الدربندي وكتابه العامل الوحيد في دخول الأخبار الواهية في واقعة كربلاء وما سواها والتي بلغت الذروة آنذاك، لكن إقبال الناس على تلك القصص أدى إلى غلبة الطابع الخرافي والأسطوري عند هؤلاء العوام على الطابع الديني، مما هيأ أرضية خصبة لظهور الدربندي وكتابه .

---

(١) الملحمة ١/ ٥٦ .

وكتاب الدربندي أسرار الشهادة هو على غرار كتاب الكاشفي الذي ألف في زمن الدولة الصفوية، ولكنه زاد عليه في الإفراط في الخرافة بل والغلو فيها، فقد حوى هذا الكتاب طوفان من الروايات التي تحمل ذلك الكم الكبير من الخرافات والأساطير .

ومن الكتب التي شاطرت أسرار الشهادة للدربندي كتاباً للميرزا إبراهيم الجوهري ، ومحرق القلوب للملا مهدي النراقي، والتي خلطت الغث بالسمين والصدق بالكذب، ودعمت الطابع القصصي على حساب انحسار الطابع التأريخي المستند .

إننا ومهما وضعنا من أسماء فإنه يستحيل علينا أن نضع تلك الطقوس والممارسات في خانة الشعائر، بل إنها لا تصح إلا في خانة الاستعراضات المذهبية وبالمعنى الفني أيضا، ذلك أنها تقدم للمشاهد أو المتلقي باسم المذهب أو الدين أكثر من مصداق يختلف أختلافاً كبيراً وعظيماً عن أصول الدين وثوابته، والعزاء معروف عند العرب في الجاهلية والإسلام ولكن هذه الاستعراضات وهذه الطقوس لا يمكن أن تمس من قريب أو بعيد مصداقية العزاء التي كان يقوم بها العرب في الجاهلية والإسلام...

وإلا كيف حدث وشقت – الحربة – تلك الآلة القبيحة، طريقها إلى الشعائر الحسينية ؟

القصة – باختصار – أن الفاضل الدربندي كان يرى في العزاء هدفا يجوّز جميع الوسائل في تحقيقة، فالتجأ إلى موضوع التطبير

ونظّـر، وكان يقول: إن الغايـة من خلق العالم هـي إقامة العزاء على الحسـين عليه السلام: [إن الدنيا وما خلق لأجل إقامة عزاء الحسين فيها] وما أكثر ما كتب ووضع من كلام بغية تسخين المشاعر، فشرّع ما كان ممنوعـًا، وقد وردت تلك الأكاذيب في كتابه – أسرار الشهادة – وكان مـن جملـة محاولاته: ادعاء دفن رأس القاسـم بن الحسـن في الضريح الكائن في منطقة تجريش شـمال طهـران، والمعروف أنه استشهد يوم عاشوراء، وكان يبغي من زعمه هذا استثارة المشاعر في موكـب العزاء هناك، فما كان من الميرزا فرهاد – معتمد الدولة وهو من نجباء أمراء القاجار وصاحب الكتاب القيم في الإمام الحسـين – إلا أن طالبه بتقديم الدليل على ذلك فأخرج الدربندي قرآنا من جيبه وقال: [أقسـم بهـذا القرآن بأن هـذا القبر هو مدفن رأس القاسـم بن الحسن المقتول بواقعة الطف].

هكـذا كانـت مبـادرات الدربنـدي ؛ حتـى وصلت إلى تأسـيس ونشـر فكرة التطبير ، يقول المستوفي في هذا الخصوص :[إن ضرب الرؤوس بالسـيف والشفرات يوم عاشـوراء كانت من ابتكارات هذا العالم في تلك الشـعائر، أو في أقل تقدير من المروجين لهذه الظاهرة ؛ فزعم الثواب في ارتكاب هذا المحرم] .

كمـا قـال مهـدي بامداد أيضـا كلاما مشـابها:[لقد جـوَّز ما كان مخالفا للأصول الإسلامية، وسنَّ ضرب الرأس بالسيف والشفرة في ذكرى في عاشـوراء، ومارس ذلك بنفسـه أيضـا .. ومنذ ذلك الحين

درج العوام .. اقتفاء لعمله على التطبير في عاشـوراء . كان من جملة ذلك ما انتشـر بين الناس آنذاك لبـس الأطواق والقلائد على الرقاب تمثلاً **بكلاب الحسـين** ومجانينـه، والزحف على الصـدور في زيارة مراقد الأئمة والسجود على أعتاب الأضرحة والصحون، ولا بد من تنبيه هؤلاء المعزين إلى أن الحسـين ليس بحاجة إلى كلاب، بل إلى الإنسـان، ولا إلى المجانين بل إلى العقلاء، ولا يريد سجوداً لنفسه، وإنما يريد عبادة الله خالصة .][1].

رواج الكذب والاختلاق

وشاعت تلك المصنفات بحيث أنها أصبحت هي السمة البارزة، يقـول القزوينـي النجفـي في أسـرار المصائب عن إشـاعة القصص المختلقة حول واقعة كربلاء في العهد القاجاري، [أسمع وأرى هذه الأيام انتشار الأخبار المختلقة والروايات المجعولة التي تأتي بالدمار على الدين وشريعة سيّد المرسلين، وبالذرائع لاستهزاء المخالفين.

إنّ رواج هـذه الأكاذيـب أعظم مصاب لأهـل البيت، وإن كانت تقـرأ في المآتم ومجالس الرثاء، لكنّها ليسـت سـوى بدعة في الدين، أتت في قالب مصائب الحسـين ، وهي مما يدمي قلبه، جاء بها بعض العوام؛ لأنهم استحسنوها ـ حسب عقيدتهم السخيفة ـ وأوردها بعض العلمـاء في مؤلّفاتهـم غافليـن، ولحقتها مفاسـد عظيمـة .. وحاصل

(١) ص ٤١٤.

الكلام: أنّه لا تجوز قراءة هذه الأكاذيب والقصص المختلقة الباطلة في المآتم ومن على المنابر - وهو أمر متعارف اليوم - وينبغي أن لا تكتب أو تقرأ حتى بقصد تكذيبها؛ إذ يؤدي ذلك إلى مداولتها لفترة من الزمن، وقد تُكتب على أوراق ثم تسقط بيد الأجيال القادمة، فيعتمدون محتواها؛ لأنهم وجدوه على أوراق قديمة].

ويصف المحدّث النوري في كتابه اللؤلؤ والمرجان، الرثاء الكاذب في العهد القاجاري، فيقول: [أما هذه الجماعة [خطباء الكذب والزور]، فكلّما اعتلوا المنبر، أتوا بخبر جديد، وزرعوا بذور الكذب في أيّ مجلس حضروه، وما إن يجدوا فتوراً في تفاعل المستمعين حتى يحيكوا خبراً جديداً، وإن جاؤوا بخبر صحيحٍ أتوا له من عندهم بفروع وحواشي كثيرة؛ لذلك لا تحصى الروايات التي ينقلونها في كتاب، ويعجز حتى الكرام الكاتبين عن إحصائها..].

وفي هذا العصر قد استشرى الكذب بين خاصة العلماء وأصحاب المنابر لدرجة أنه أصبح السمة البارزة فلم يتورع هؤلاء بالأكاذيب الغريبة والألحان المطربة حتى في مراقد الأئمة سلام الله عليهم وخاصة مزار سيد الشهداء الحسين سلام الله عليه، وفي مختلف الأوقات ولا سيما الأسحار، فيظلم المقام وتطفأ الأنوار وينشغل الناس بتلك المشاهد والطقوس عن الإنابة التضرع إلى الله وحده .. فلا جرم أن هؤلاء من أوائل الصادِّين عن سبيل الله، وبهذه المنكرات يتألهون على الله ويتنكرون لربوبيته وألوهيته فيتوجهون

إلـى تلك المخلوقات الضعيفات، وإن لـم يجدوا حاجاتهم، وجهوا العتـب واللـوم علـى رب البريـات، وفي ظـل تلك الطقـوس يصبح المكان ملعبـًا للشـيطان ومكسـبـًا لخدمه من الإنس والجان، فيعقد في تلـك الأثناء أولئك الخطباء والملالي حلقـات الرواية والاحتيال في الصحـن الحسـيني فيلفقون القصص الطويلة ويسـتمرون بسـرد الأكاذيـب الواضحات لأكثـر من الثلاث سـاعات، فيجتمع حولهم من الهمج الرعاع منشـغلين بالمنكر القبيح، معينين عليه غير آبهين به ولا ملتفتين لقبحه، ناهيك عن استنكاره أو منعه، وجدير بأهل العلم لـو كان هنالك بقية منهم! أن يصونوا الأمة المحمدية بأفضل مما هو عليـه الحال وأن يبعدوها عن هذا الخزي والعار، ويطهروا سـاحتها من دنس هذه القاذورات، ويمنعوا من انتشار تلك الرذائل .

الطقوس المستحدثة في العصر القاجاري : الرسوم والشموع و..

ظهـرت في عهـد الملك ناصـر الدين طقوس أُخرى غيـر التطبير والضـرب بالموسـى، وتديـن بهـا عامـة الناس، ومـع مـرور الأيام أصبحـت مـن المقدسـات المُسَـلَّمات، وليس غريبـًا أن تظهر مثل هذه الطقوس في مثل هذه المناخات، فمن تلك الطقوس وأشـهرها: الرسـومات، فقد راجت في هذا العصر تمثيل وتشـخيص رسـومات أهل البيت سلام الله عليهم، وخاصة صور أو رسم الإمام علي سلام الله عليه، وكان أكثر الناس في تلك الفترة يحتفظون برسم للإمام علي أو للحسـين أو لأحـد ممن ينتسـب لأهل البيت سـلام الله عليهم في

بيوتهم، ولكن بقي في تلك الفترة وجه الإمام في تلك الصورة مظللا، إذ إنهم كانوا يعتقدون بأنه لا رَسّامَ يمكنه رسم تلك الملامح، ولكن الملك القاجاري انفرد برسم كبير لوجه الإمام علي سلام الله عليه، وكان يقيم الاحتفالات الرسمية لتكريم تلك الصورة وإجلالها، وقد حملت تلك المراسيم طابع العبادة .

يذكر إدوارد بولاك رواج تلك الرسومات في العهد الناصري، فيقول: «يعتقد هؤلاء [الشيعة] بالرسوم والتصاوير، وتجد في كافة بيوت الفقراء رسماً يمثل الإمام عليا نُحت على الخشب من دون دقّة أو مهارة؛ إذ يقولون: إنه كان في غاية الجمال واللطف، حيث لا يمكن لرسّامٍ تصويره، ولذلك يبقى وجهه مظلّلاً، ويظنّ الملك بأنّ الرسم الحقيقي [النسخة الأصلية] للإمام علي مُلكه وحده. ويبدو أنه جُلب من الهند، ويحتفظ به في صندوق ذهبي مزخرف جميل، وحين يأتون به يقف جميع من في البلاط إعظاماً وإجلالاً له وحتى شخص الملك يبالغ في إظهار الاحترام والتعظيم له، وقبل عدّة سنوات ابتكر نهجاً لتكريم رسم الإمام علي.. لكنّ مشاركة العلماء في هذه المجالس كانت بإكراهٍ شديد؛ لأنهم وجدوا في هذه المراسم نوعاً من عبادة الصورة، الأمر الذي يخالفه ـ بصراحة ـ نصّ القرآن الكريم].

يقول مرتضى مطهري مستخفا بالصور التي يرسمها الرسامون للإمام علي عليه السلام: [انظروا إلى علي وهو ذلك الرجل العظيم، ثم قارنوا شخصيته الحقيقية مع تلك الصورة العجيبة والغريبة التي

صورهـا لنـا المُحَرِّفون، إن بعـض الناس تعرف عليـاً على أنه ذلك الرجل البهلوان فقط لا غير !

وأحيانـاً ترى علياً وقد صور بواسـطة أشـخاص مغرضين وهو يحمل سيفـاً له لسان يشبه لسان الثعبان، بالإضافة إلى تلك العضلات والشـكل والبدن الذي رسمته مخيلة الرسامين، الذين لا يعلم إلا الله من أين جاؤوا بهذه الصورة الخيالية له .

وفي الوقت الـذي لا يوجد في التاريخ أية صورة ، أو تمثال لعلي، تراهـم رغـم ذلك يرسـمون له أشـكالاً عجيبـة، لا يمكـن للمرء أن يتصـور معهـا ذلك الإمام العـادل، وذلك الرجل الـذي لا ينام الليل وهو يبكي في خشوع مخافة الله رب العالمين، وكلنا يعرف أن صورة العابـد والمتهجد وصـورة المرء الذي يقضي الليل وهو منشـغل في طلب الاسـتغفار وصـورة الحكيم والقاضي والأديـب مختلفة جداً عن تلك الصور التي يعرضونها عن علي امير المؤمنين]. [1]

طقس الواحد والأربعين شمعة:

وظهـر في هذا العصر طقـس [إيقاد واحد وأربعين شـمعة] وهذا الطقـس ابتـدأ فعلـه الخواص مـن أهل المملكـة ، فكان يـأتي بإحدى وأربعين شمعة ، ويمر على أربعين أو إحدى وأربعين مأتمـاً، ويوقد في كل مأتمٍ يمر فيه شمعة، وذلك من أجل أن تستجاب دعوته ، فلقد ورد

(١) الملحمة ١/ ٩٤.

في أحـد مذكرات هؤلاء أنه كتب تحت عنوان حوادث ١٣٠٠ هجرية : [ذهبت الليلة إلى أربعين مأتمـاً ، التي أذهب إليها كل عام].

ويقول عبد الله المستوفي عن هذا التقليد : [كنّا نرى جماعةً في ليلة عاشوراء، بعضهم حفاة، يحملون أكياسـاً أو صناديق مليئة بالشموع، فيذهبون لخيم العزاء والمآتم التي يرثى فيها الحسـين نهاراً، ويؤدّون نذرهم في إيقاد واحد وأربعين شـمعة في واحد وأربعين مأتمـاً.. كان أولئـك الناس مـن كافّة الطبقات، حتى بعض الأثريـاء كانوا يقومون بذلـك التقليـد ومعهـم المصباح والخـدم والفـراش.. كان الفراش يحمل صندوق الشـمع، ومـا إن يصلوا إلى المنبر حتى يوقد السـيّد شمعةً، ويقبّل المنبر بإخلاص تام] .

وكان الملـك محمـد علـي آخر ملـوك القاجار يقيم كل سـنة في العشـرة الأولـى من محرم خيمة عـزاء، وينطلق ليلة عاشـوراء حافي القدمين في الطرق إلى أربعين مسجداً ليوقد فيها الشمع .

وتعـود جذور هـذا التقليد إلـى اعتقـاد الإيرانيين قبل الإسـلام بقداسة النور، وكونه واسطة بين الإنسان والذات الإلهية .

ومما سـبق نسـتخلص أن عوامل التأسـيس والتقديس في العصر القاجـاري قـد تكاملت، وكان مـن أبرز تلـك العوامـل عمل ملوك القاجـار بتلك الطقوس، وحث الناس على التمسـك بها، إضافة إلى عامل التكرار، ولا شك أن روح الاعتراف بالجميل، ورعاية المبادئ الإنسـانية توجـب علينا احترام الماضين من الأسـلاف، ولكن لا أن

نعتبرهم معصومين عن كل خطأ، فنتبع خرافاتهم ونقلدهم في ذلك التقليد الأعمى، وهذا اللون في الواقع ليس سوى لون من ألوان الوثينة والمنطق الجاهلي .

إنَّ هذه الصورة الساذجة لتلك الطقوس، والتي يأنف عن الإغراق في ثناياها كل عاقل سويٍّ له بقية من فطرة قد توفرت لها أسباب التأسيس في العصور السابقة، وأسباب التقديس في العصر القاجاري بصورة خاصة، إننا حينما نريد أن نتحدث عن تقديس الشيعة لتلك الطقوس، فإننا ندخل في منطقة [اللاوعي] عند هؤلاء، فبوجود القدوة الأسطورية، وهم الملوك الذي يمارسون تلك الطقوس والتكرار المنتظم، مع ربط تلك الطقوس بحاجات الأرض والسماء، وتحقيقها وتنفيسها لمظالم الروح والضمير، يخرج الشيعي من اللاوعي إلى الوعي الكامن الذي يحركه ويدفعه إلى العمل والاندفاع في ثنايا تلك الطقوس .

إن تقديم نظرية مقبولة لتقديس هؤلاء لتلك الطقوس ليس بالأمر الهَيِّن ، ولا يمكن عد تلك السطور المتقدمات تفسير متكاملاً لذلك التقديس، إنما هي الخطوط العريضة له ، فالأمر يحتاج منا الرجوع إلى الوراء بخطوات كثيرة وكبيرة لندرك عمق هذا الانحراف .

والذي يفتح لنا روزونة هذا الجدار؛ لنطلع على بعض صور هذا الانحراف الكبير، هو تلك الرمزية المرتبطة بتلك الطقوس والتي تمثل حلقة الوصل بينها وبين الأئمة سلام الله عليهم ، وهذه الرمزية

تشـكل ذريعة كبرى للشرك والوثنية، وهذه الحالة تشبه إلى حد كبير حالة العرب قبل بعثة النبي الأكرم صلوات ربي وسلامه عليه، حيث كانـوا يعانون من ضعف آثـار النبوة، الأمر الـذي قادهم إلى تقديس الرموز أو الأشياء ووصلوا إلى ما يسمى:[القابلية للشرك].

❊ ❊ ❊

المبحث الثالث

الروادید وأثرهم في تكريس الطقوس

الروادید هم مجموعة من المنشدين يرددون أشعاراً بالعامية أو الفصحى، ويصنعون منها ألحاناً ذات جرس خاص، ومطربة في بعض الأحيان، وفي أخرى حزينة وشجية، وأخرى تدعوا إلى الثأر والانتقام،وإلى أمور أخرى كثيرة، بل يمكننا القول إن الروادید لهم من القدرة والتأثير والقبول مالا يتوفر لكثير من الدعاة والخطباء، فهو ومن خلال تلك الأبيات الشعرية إنما يختصر العقدة والعقيدة والهدف والغاية وأي توجيه سياسي أو عقدي ببيت أو بيتين يرددهما، ومعه الألوف وهم يتمايلون ذات اليمين والشمال طرباً أو قُلْ إن شئت ألماً – ولا فرق – وبالتأمل نجد أن هؤلاء الروادید حين يتناولون ألحاناً في حب الحسين، فهم بالحقيقة إنما يعزفون على أوتار جراحاته، ويتغنون تجارةً باسمه، ويصدحون بمصابه، وينكأون جراحه، وهم يدركون في ذات الوقت مشاعر العامة من طبقة الدهماء والتي تبحث عن أي سبيل لأجل رضا الإمام الحسين سلام الله عليه !

ولا بأس أن ينحصر هذا السبيل في نغمٍ راقصٍ يثير الحزن والشجن يصل به إلى حد الفناء في ذات الحسين سلام الله عليه .

الرادود يقوم اليوم بدور المُبَلِّغ أو بدور الداعية الإسلامي، وهذا

الأمـر يعكس إغراق الشـيعة في دركات الجهـل والخرافة والرغبة في تناول أسـبابها، وإن من أعظم تلك الأسباب هؤلاء الرواديد الذين لا يحسـنون إلا اسـتدرار الدمعة والعاطفة، وهو مدار بل محور الوعظ عند عامة الخطباء من الشـيعة، وبهذا الفعل، وأعني اللحن الشـجيّ، والذي من خلال تحريك تلك النفس البهيمية ، يتفوق الرواديد على عامة الدعاة وخطباء المنابر ، وأما حيازة العلم وشـروط التبليغ فإنها تزول بمسـحة من ذلك الأنين الجزين ، يقـول المطهري عن صعود هؤلاء من جنبات المنبر إلى أعواده :

[وإذا قلت لكم أن مقام المبلغ للإسلام والداعية الإسلامي الذي يبلـغ أهداف الرسـالة الإسـلامية لعموم الناس والتعريف بالإسـلام باعتباره مدرسـة الحياة هو في الواقع ليس أقـل قيمة من مرجع تقليد المسلمين لا يحتاج الأمر منكم إلى العجب .

فهو مقام بهـذه الحدود، بالطبع هنالك أمـور مطلوب توافرها في مرجـع التقليد لكنهـا غير مطلوبة في شـروط المبلغ، لكـن مجتمعنا للأسـف عندما يصل عند هذه المسـألة تراه ينسـى كل شـيء فما هو رأس مال المبلغ في مجتمعنا الراهن ؟

ومن أين يبدأ المبلغ في صعود سلم المقام التبليغي ؟

فـأي فـرد في المجتمع اليـوم يملك صوتـاً جميـلاً، ولديه قدرة بسـيطة في تلحين الشـعر وحفظ عدد بسيط من الأشـعار تراه يتدرج شـيئاً فشـيئاً؛ ليصبح مداحـاً في المناسبات الحسـينية، فيقف جنب

المنبر الحسيني ويبدأ بقراءة بعض المديح، وبعض المراثي الحسينية في البداية .

ثم تراه فجأة بعد مرور فترة بسيطة قد وضع شالاً (أسود أو أخضر) على كتفه وأخذ يقف هذه المرة على الدرجة الأولى من المنبر الحسيني – وليس بجانبه – ثم يبدأ بالقراءة والخطاب الحسيني مدة من الزمن ويأخذ ينقل من كتاب(الجودي) أو(الجوهري) أو (جامع الفصيل) وقصة من هنا، وحكاية من هناك، أو أنك إذا سألته من أين لك بهذه الحكاية قال لك: من صدر الواعظين، أو لسان الواعظين، فتتصور أنت للوهلة الأولى أنه يحدثك عن كتاب لا تعرفه أو لم تسمع به، ولكنك إذا ما دققت قليلا تفهم أنه يقصد أن أحداً من الوعاظ قد نقل له شفهيا هذه الحكاية أو تلك القصة .

وبالتالي فإن حكاياته أغلبها قد سمعها من هذا أو ذاك من الناس، ولا يهمه إنْ كانت صحيحة أو كاذبة أو ملفقة، فهو لا يدري ما الخبر أصلا، وعم يدور الحديث . فكل ما يهمه هو الاستمرار في المهمة بهذا الشكل التصاعدي، فتراه قد جمع في هذه الأثناء عدداً من المنبريين الخاصين به، وشيئاً فشيئاً تراه يصعد الدرجة الثانية من المنبر الحسيني، ويبدأ عوام الناس بالالتفاف حوله .

ولما كانت أكثرية الناس تبحث عن المجالس المكتظة، ولما كان أصحاب المجالس الحسينية لا يهمهم في الدرجة الأولى سوى كثافة الحاضرين، فإن أمثال هؤلاء الوعاظ ! يزدادون وينتشر سوقهم دون أن

يفكر صاحب المجلس الحسيني عن السبب وراء هذا الحشد من الناس.

فهل المهم أن يكتظ المجلس بالمستمعين ؟

أم أن المهم ماذا يستمعون ؟ !

إنها خيانة للإسلام أن يكون الوعظ والتبليغ قد بدأ من رتبة القدرة على تلحين بعض الأشعار .

ويبدو أن هذا الأمر قد أصبح قاعدة عامة ومنتشرة في كل مكان، وقد أصبحت للأسف معياراً وملاكًا، وهو ما رأيناه ولمسناه في كثير من الأماكن التي زرناها].[1]

إن هؤلاء الرواديد يُكَرِّسون هذه الطقوس من خلال الشعر الشعبي المصحوب بتلك اللطميات، وقد أصبح هذا الفلكلور من المُسَلَّمات، ولا يتجرأ على إنكارها إلا من فقد رشده، فقد أصبحت منتشرة ومؤثرة للغاية وذلك من خلال النغم والصوت الرخيم المصاحب لذلك اللطم أو اللدم المنتظم على الأكتاف أو الخدود، وينشد الرادود من خلال ذلك، وعلى خلفية تلك الأصوات، وضربات اللاطمين المنتظمة بذلك الشكل المدهش والغريب، ومن خلال ذلك تصبح تلك العملية لونًا بالغ البراعة من الغناء الحزين الآسر للقلوب، ومع مرور الزمن تصبح تلك اللطميات وأعمال الرواديد عصب العقيدة الشيعية وتحتل ذلك

(١) الملحمة ١/ ٣٠٧ .

الـدور الإعلامي الخطير الـذي يحفز الجمهور لتحقيـق مبدأ الولاء والـبراء وضروریاتـه، إن خطورة الـدور الذي يلعبه هـؤلاء الروادید في تلـك الطقـوس يكمن في قـوة تأثيرها على هـؤلاء العموم، وهذا نابـع من تلك الحاجـة الملحة والمتبادلة، بين هـؤلاء الروادید وبين عامة الناس، فالرادود يجد نفسـه في تلك الطقوس ويحقق فيها ذاته، وأمـا عامة النـاس فإنهم يجدون من تلك - الرَدّات - تعبيراً صريحـاً ومباشـراً وتنفيسـاً آنيـاً ولحظيـاً لما تجيش به صدورهم وضمائرهم، كمـا أن تلك - الـرَدّات - تعوضهم عن جهلهم بعقيدتهم وذلك عن طريق التشـبع بالمعارف بطريق الأشعار والتي توصل المعنى المراد بطريقة سـهلة ومحببة إلى النفس ومن ثم تربطه بالمحيط العام ، بما يتناسب والحالة العامة للمذهب .

ودور هـؤلاء أخطـر واعظم من عامـة الخطباء والوعـاظ أو الدعاة، كما ذكرنا سـلفا ذلك أن كلام الخطيب يحتاج إلى دورة طويلة في العقل والضميـر كـي يؤدي دوره، ويوقـع فعله على الأرض، في حين أن شـعر الرادود إنما مثله كالسحر أو الكيمياء، فسرعان ما تجد أثره على النفس، كما أنَّ كلمات الرادود ممكن أن تكون ملازمة لهؤلاء العوام على الدوام لحلاوتها ولتعلقها بعقدة أو عقيدة موغرة في الصدر أوالعقل .

إن خطـورة هؤلاء الروادید هي أنهـم يجعلون من كل أركان الثأر والانتقام والدعوة إلى السب واللعن والتكفير أغنية يترنم بها الشاب، وهو يضرب بأقدامه ناصية الطريق، ومن ثم تكون له نتاجـاً طبيعـاً إن

لاحت له الفرصة لتحقيق هذا النغم، فيتخرج الكثير من أفواج هؤلاء اللاطميـن من تحت أقدام هؤلاء الروداديد، وقد تعمقت في نفوسـهم ممارسـات القتل والذبـح ، بعدما اعتادوا على رؤية الدماء المسـالة على الرأس والجبين.

وهـذا هو ما رأينـاه واقعـًا مرّاً في بلاد الرافدين بعد سـقوط بغداد عـام ٢٠٠٣ ميلاديـة ، وبـرزت الجرائم التـي لم تعرف لها البشـرية في التاريـخ نظيرهـا إلا ما عرفناه من جرائم أسـلافهم مـن العبيديين والبويهين والصفوين .

إن الحقـد المتراكم والمتأصل في هـذا الدين والذي تظهره جليـًا تلك الأغاني التي تتردد على شفاه أولئك الروداديد، فتثير حمية الحقد والرغبة العارمة في الثأر والانتقام، حيث يكون لها ذلك التأثير الخرافي الـذي لا يمكن تصوره حين الوقوع، ولو بأوسـع العقـول خيالاً من حيث السادية والجرم .

إنَّ مـا يقوم به هؤلاء الروداديد هو قريب إلى حد كبير بتلك المادة الإعلانيـة والتـي تزيد الرغبة في سـلعة ما من خلال التكرار وإشـباع العين والسمع بتلك المادة، فكيف بذلك التكرار المريع ليلاً ونهاراً، وبتلـك النغمات والألحان الشـجيَّة على طول مواكـب العزاء وهي تخاطـب الوجدان بذلك اللحن الحزين الذي يملك الشـعور رغمـًا عن الأنف سيما إن اقترنت تلك الأعمال بغلاف الدين ورضا الإمام الحسين والسيدة الزهراء سلام الله عليهما.

المراجع والمصادر

- مأساة الحسين بين السائل والمجيب للشيخ عبد الوهاب الكاشي ص ١٤٧ الناشر/ دار الزهراء للطباعة والنشر ١٩٩٠ م.
- عصر الدولة الزنكية ١/ ٥٢٣.
- نفحات اللاهوت في لعن الجبت والطاغوت للمحقق الكركي ص ٤٠.
- جدل ومواقف لحيدر حب الله ص ٧٩ نقلا عن [شرح زندكاني من ياتاريخ اجتماعي واداري دوران قاجارية ١/ ٣٠٢.
- مقالة لمحسن حسام ظاهري بعنوان : [تاريخ الماتم الحسينية في العصر القاجاري ص ٥٧ من كتاب جدل ومواقف لحيدر حب الله / دار الهادي للطباعة والنشر ٢٠٠٩م.
- نقلا عن ايران وايرانيان ص ٢٨٤ .
- مأساة الحسين بين السائل والمجيب للشيخ عبد الوهاب الكاشي ص ١٤٧ الناشر دار الزهراء للطباعة والنشر ١٩٩٠ م.
- صراط النجاة للميرزا جواد التبريزي ٢/ ٥٦٢ طبعة سنة ١٤١٧ هـ.

* * *

الفهرس

الموضـــــــوع	الصفحة
الفصل الأول: طقوس عاشـوراء والتربية على التحريض والتكفير	٥
المقدمة	٧
المبحـث الأول: عاشـوراء والدعـوة إلى الخـروج على الحاكم السُنّي	١٥
المبحث الثاني: التشـيع منظمة سياسـية تسـعى للسيطرة على الأقاليم	٣١
المبحـث الثالـث: الطقوس والشـعائر الحسـينية وأثرها في تشكيل الهوية المذهبية المعادية للأمة ودورها في التحريض	٤٤
المبحـث الرابع: الوظائـف والأدوار التي تشـكلها تلك الطقوس ضد الحكومات السُنِّية	٥٤
الفصل الثاني: طقوس عاشوراء بين الاختلاق والتحريف والإساءة لأهل البيت رضي الله عنهم	٧٥
المبحـث الأول: بداية الكتابة في عاشـوراء بين التحريف والتوظيف	٧٧

الموضـــــــوع	الصفحة
المبحـث الثاني: التحريف الذي لحق بسـيرة أهل البيت، أنواعه، دلائله	١٠٣
المبحث الثالث: عوامل أو دلائل أو بواعث التحريف	١٢٦
الفصل الثالث: المأتم الحسـيني وطقوسـه من التأسـيس إلى التقديس	**١٥٣**
المبحث الاول: تاريخ المأتم الحسيني: نشأته، والمراحل التي مرت به	١٦٠
المبحـث الثـاني : الدولـة القاجارية والتأسـيس لمرحلة التقديس	١٧٧
المبحث الثالث: الرواديد وأثرهم في تكريس الطقوس	١٩٧
المراجع والمصادر	٢٠٣
الفهرس	٢٠٥

انتظروا كل جديد

من مكتبة

دار الآل والصحب

بالمدينة المنورة

بجوار مسجد قباء

هاتف: ٠٠٩٦٦٤٨٢٢١٥٥٥